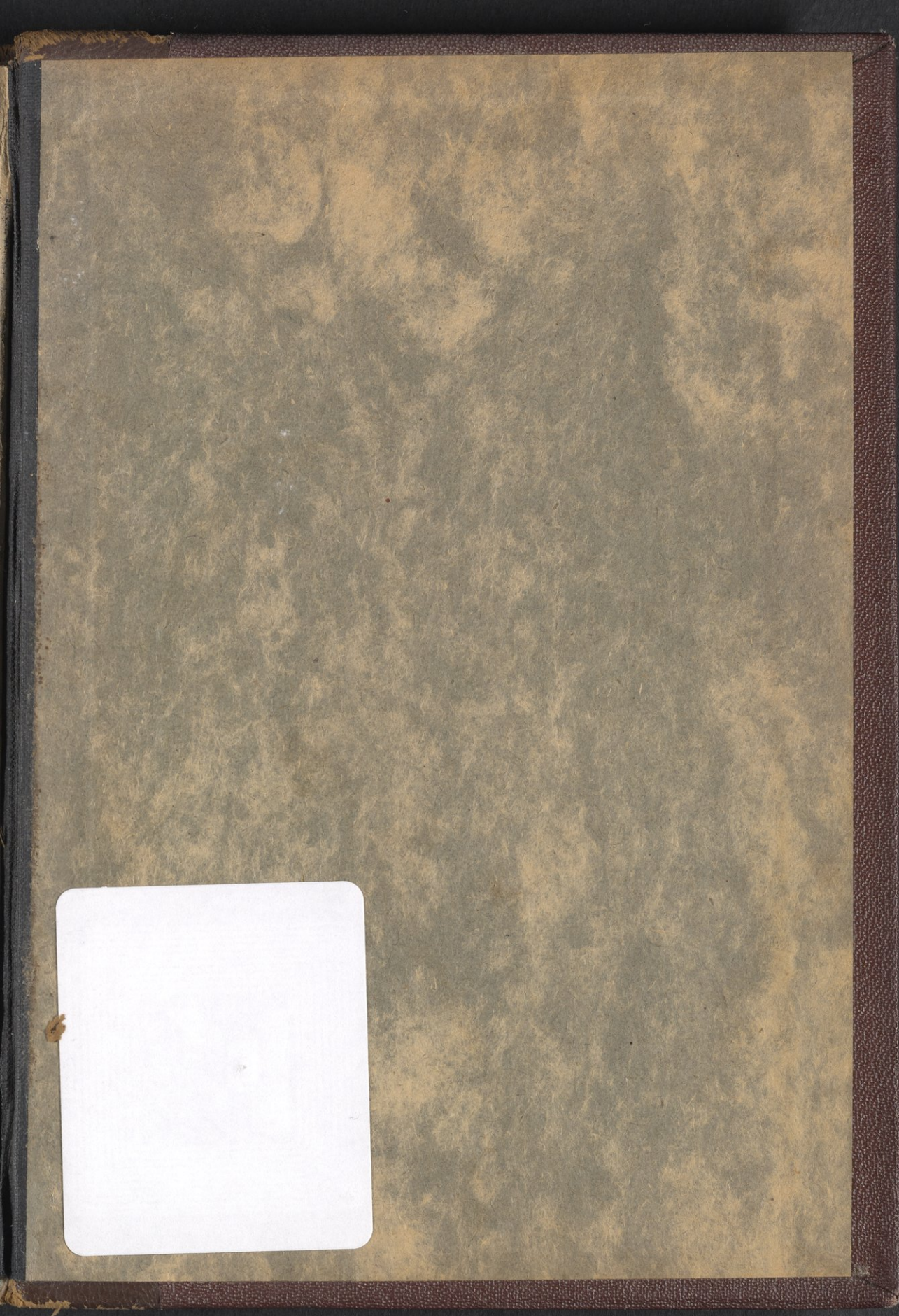


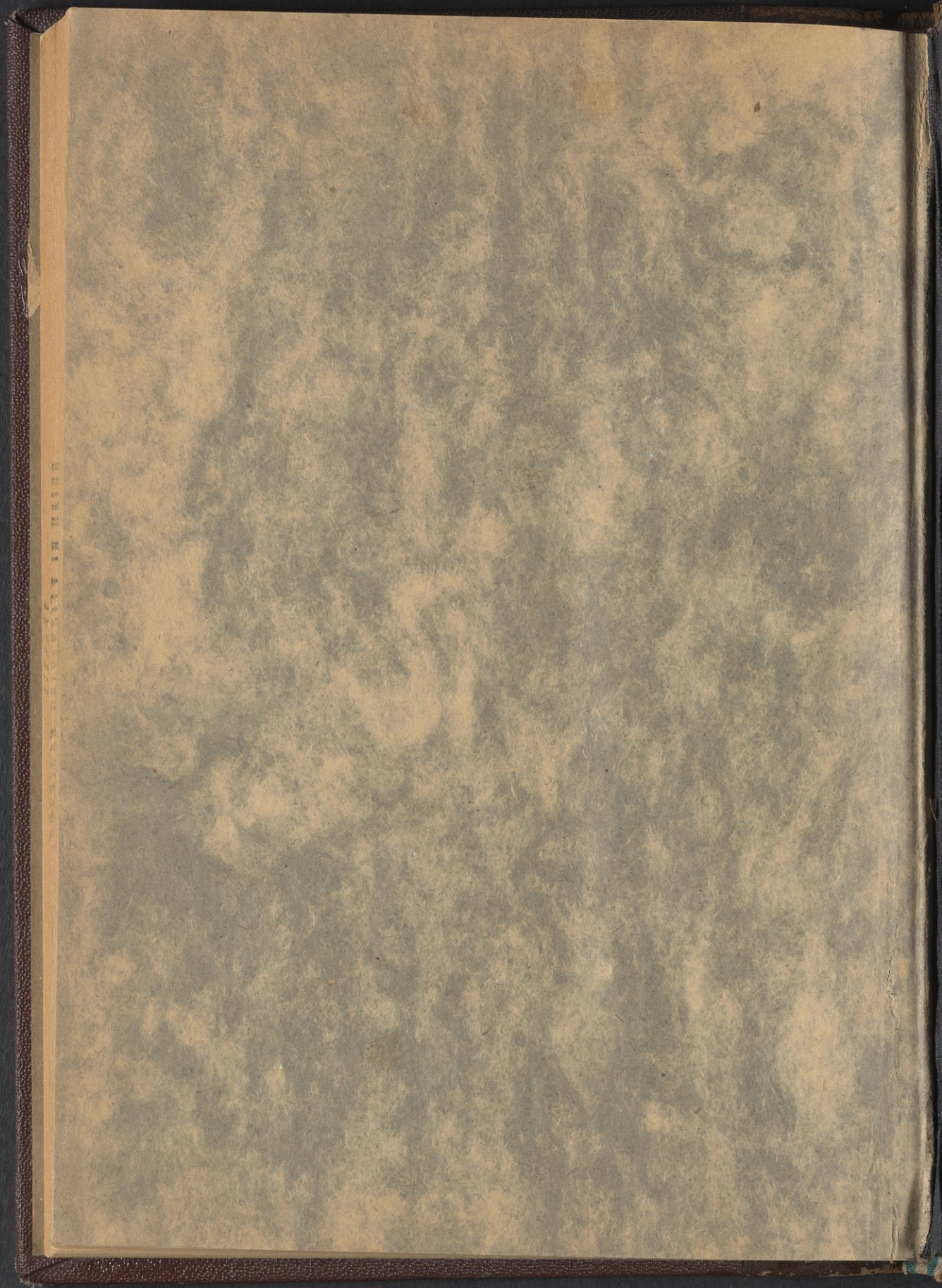
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01010 6346

2001 P

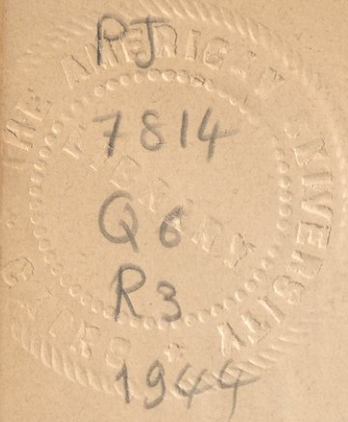




02-8918

put feb 6th

al-'Aqqād, 'Abbās Mahmūd.



عباس محمود العقاد /

Raja'ah Abi al-
'Ala'

رجعة أبي العلاء /

يطلب من :

مكتبة

دار الكتب الحديثية

لصاحبها توفيق عفيفي عام

١٤ شارع الجمهورية

١٢

٨١٤, ٧
عقار. ر. ج.

٨١٠, ٩
٢٢٤



51325

علامات الخلود

مقدمة الطبعة الثانية

لكتاب « رجعة أبي العلاء »

ثلاث علامات من اجتمعن له كان من عظماء الرجال ، وكان له حق في
الخلود :

فرط الإعجاب من محبيه ومريديه ، وفرط الحقد من حاسديه والمنكرين
عليه ، وجوُّ من الأسرار والألغاز يحيط به كأنه من خوارق الخلق الذين يحار
فيهم الواصفون ويستكثرون قدرتهم على الآدمية ، فيردون تلك القدرة تارة إلى
الإعجاز الإلهي ، وتارة إلى السحر والكهانة ، وتارة إلى فلتات الطبيعة إن
كانوا لا يؤمنون بما وراءها .

وهذه العلامات الثلاث مجتمعات لأبي العلاء على نحو نادر في تاريخ
الثقافة العربية ، لا يشركه فيه إلا قليل من الحكماء والشعراء . فهو في ضمان

الخلود منذ أحبه من أحب ، وكرهه من كره ، وتحدث عنه من تحدث كأنه
بعض الخوارق والأعاجيب .

بلغ من منزلته بين مريديه أن وقف على قبره نيف وثمانون شاعراً
يرثونه بعيده وفاته ، فكان بلاغ قولهم مطلع قصيدة لأحدهم - أبي الفتح
الحسن بن عبد الله بن حُصينة - حيث يقول :

العلم بعد أبي العلاء مضيّع والأرض خالية الجوانب بلقع
وهو مثل من أمثلة الإعجاب الذي اتفق عليه أولئك الشعراء ، وكانوا
فيه ترجحاً لمئات ، أو ألوف من المعجبين ، لم ينظموا الرثاء ولم يقفوا على ثراه .
و بلغ من انكار حساده والجاهلين به أنهم جعلوه من أهل الجحيم ،
والحقوه بأحق ما يسب من الحيوان ، واستجهلوه غاية الجهل ، واتهموه في
فهمه وذكائه !

قال رجل وقد عثر به : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب
من لا يعرف للكلب سبعين اسماً ! ..

وذكر ياقوت بعض كلامه في معجمه ثم قال : « كان المعري حماراً لا
يفقه شيئاً ، وإلا فالمراد بهذا بين ! » .

وسئل عنه علي بن الحسن المعروف بشميم وهو من نحاة القرن السادس .

فغضب وقال لسائله ناهراً : ويلك ! كم تسيء الأدب بين يديّ ؟ من ذاك الكلب الأعمى حتى يذكر بين يديّ في مجلسي ؟ ! . . . » .

وهناك أناس استعظموه ولكنهم لم يفهموه ولا حقدوا عليه . وحسبوا أن قدرة الإنسان لا ترتقي هذا المرتقى ، وأن سر بني آدم لا يخفى هذا الخفاء ، فألحقوه بعالم الجهول ووصلوا بينه وبين سيطرة الفلك وقضاء الأقدار .

قالوا إن محمود بن صالح صاحب حلب اتهمه بالزندقة فأمر بحمله إليه من المعرة ، وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال : يا ابن أخي ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، فإن منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك كان عارا علينا عند ذوى الذمام ، ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال أبو العلاء : هوّن عليك يا عم ! ولا بأس عليك ، فلي سلطان يذب عني . ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر إلى المريح أين هو ؟ فقال في منزلة كذا وكذا . فقال زنه واضرب تحته وتداً ، وشدّ في رجلى خيطاً واربطه إلى التود . ففعل غلامه ذلك ، وسمعوه وهو يقول : يا قديم الأزل ! يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات وموجد الموجودات . أنا في عزك الذى لا يرام ، وكنفك الذى لا يضام . . . الضيوف الضيوف ! الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا بهدة عظيمة ! فسأل أبو العلاء عنها فقبل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين . . . وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعموا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير .

ومن لم يكن عندهم ساحرا أو قديسا من ذوى الكرامات كان خارقة
من خوارق التكوين أو طرفة من طرف الزمان .

رووا عن تلميذه أبى زكريا التبريزى أنه كان قاعدا فى مسجده بمعرة
النعمان بين يدى الأستاذ يقرأ عليه شيئا من تصانيفه ، وكان قد أقام عنده
سنين لم ير أحدا من أهل بلده ، فدخل المسجد بعض جيرانه فرآه وعرفه
فتغير من الفرح وأحس أبو العلاء بشيء فسأله : ايش أصابك ؟ فحكى له
ما رآه .

قال أبو زكريا فيما رووا عنه : فقال لى أبو العلاء : قم وكله ! . فقلت :
حتى أتم السياق . فقال : قم . أنا أنتظر لك . فقمتم وكلته بلسان الأذرية
- أهل أذربيجان - شيئا كثيرا ، إلى أن سألت عن كل ما أردت . فلما
رجعت وقعت بين يديه قال لى : أى لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل
أذربيجان ، فقال لى : ما عرفت اللسان ولا فهمته . غير أنى حفظت ما قلتما .
ثم أعاد على اللفظ بعينه ، من غير أن ينقص عنه أو يزيد عليه فى جميع ما
قلت . فتعجبت غاية التعجب ! كيف حفظ ما لم يفهم ؟ .

وحدث أبو الحسن الدلفى المصيصى الشاعر ، قال : لقيت بمعرة النعمان
عجبا من العجب . رأيت شاعرا ظريفا يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل فى
كل فن من الجد والهزل يكتنى أبا العلاء ، وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العى
كما يحمد غيرى على البصر . . .

تلك هي العلامات الثلاث مجتمعات لأبي العلاء : اطناب في الإعجاب ،
ونهاية في الزراية ، وحيرة في كلام واصفيه كحيرة المتحدثين عن خوارق
الغيب وعجائب الأساطير .

وإذا بلغ من تعدد الجوانب برجل واحد أن يقول قوم انه نخر
بني الانسان ، ويقول قوم إنه كلب وحمار ، ويسلكه أناس في زمرة
الشیطان ويحسبه أناس وليا مستجاب الصلاة ، ويخيل إلى فريق أنه ساحر
وإلى فريق أنه طرفة من الطرف وأسطورة من الأساطير - فذاك هو الأفق
الواسع ، وتلك هي العظمة الباقية . . . ومن شاهده في زمانه فلا حاجة به أن
ينتظر ألف عام ليعلم أنه باق إلى ألف عام ، وانه محتفل به بعد ألف عام ، أو
ينبئ الدنيا بامتداد خبره ما بقي لعصره خبر بين سجلات العصور .

وها قد مضى اليوم ألف سنة هجرية على اليوم الذي ولد فيه أبو العلاء
لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلثمائة وثلاث وستين . وُلد كثيرون
في هذه السنين الطوال كما ولد ، ومات كثيرون كما مات ، وتكررت
الولادة والوفاة في الأمم العربية مئات الملايين من المرات ، ولكن ذلك المولد
النادر لم يتكرر قط في هذه السنين ، ولم يزل مولد ذلك الوليد حادثا فردا
بين ثمرات الأصلاب والبطون ، يستحق أن يعاد إليه من سنة إلى سنة ، ومن
جيل إلى جيل ، ومن ألف عام إلى ألف عام .

و بين الذين كرتهم الدنيا ألوف من أمثال ذلك المسكين المغرور الذى أغضبه السؤال عن أبى العلاء بين يديه ، ورأى من سوء الأدب فى مجلسه أن يعادله اسم على مسمع منه ، ولكن التاريخ الذى كررهم كثيرا ومل من تكرارهم طويلا لم يدركه الملل من ترديد اسم أبى العلاء المغضوب عليه وعلى من سأل عنه . ولم ير من سوء الأدب أن يصبح ويمسى بتمجيده ، وأن يحصى الأحقاب بعد الأحقاب لملاقاته فى يوم عيده . بل رأى من سوء الأدب أن تمضى ألف سنة ولا يستوقف الزمن الماضى محتفلا بذكراه ، مستعيدا لميلاده ، مشيرا إلى مطلعته كما يشار إلى ظواهر الكون التى تستعاد ، لأنها قلما تعود . ولقد وقف على قبره - يوم وفاته - ثمانون شاعرا أو يزيدون ، وتقف على قبره اليوم أمم العروبة جمعاء ، وأمم شتى من جميع الأقطار والأنحاء ، مئين أو فوق المئين ، ينوب منها الشاهدون عن الغائبين . وإذا عدل الزمان فهذا الوفاء هو سواء الميزان ، بين أناس وسموه بعزة القدر ، وأناس وسموه بخسة الحيوان .

تسلّفت هذى الذكري قبل ست سنوات .

وكانت الصحف السورية قد نقلت إلينا فى ذلك الحين أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذى أزمعت إقامته فى المعرفة على قبر أبى العلاء ،

وأنها تعد العدة للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاة الشيخ ،
والصواب على مولده كما هو ظاهر ، وكما نشير إليه بعد سطور .

فخطر لنا أن أبا العلاء قد دعى من حظيرة الخلود إلى شهود ذكراه ، وأن
الأمم لا يزال فسيحا بيننا وبين ذلك اليوم المشهود ، ففي ذلك الأمد متسع
لرحلة علائية حول الكرة الأرضية ، يرى فيها ما يعيننا أن يراه ، ويقول فيها
ما ينبغي أن يقول ، أو نقول نحن على لسانه ما يشبه مقاله في أوامه ، قياسا
على ما صنع هو في السماء حين حدثنا في رسالة الغفران بلسان الأدباء والشعراء ،
وجعل لهم من كلامهم وأخبارهم دليلا له في كلامه وأخباره .

فكتبنا يومئذ سلسلة هذه المقالات التي سميناها « رجعة أبي العلاء » ،
وعرضنا فيها حوادث الدنيا كما تتمثل له ولمن ينظرون إلى أمور العصر الحاضر
مثل نظرتة في سائر الأمور . ونحسب أننا أتينا بصفوة الآراء التي توافقه
وتستخلص من جملة تفكيره . . . ما لم يكن قد تغير نظره بعد موته ، وهو
مستحيل ! .

ونحسب كذلك أننا لم ننحله رأيا ينكره لو أنه عاد إلى هذه الحياة الدنيا
في زماننا هذا ، لأننا شفّعنا آراءه الحاضرة بأقواله المحفوظة فيما عرض له من
خطوب زمانه ، فتشابهت الأقوال وتقاربت الأحكام ، وبقي على من يخالفنا
أن يزعم أن هذه الآراء غريبة عن منحى أبي العلاء في تفكيره ، ويثبت

ذلك بكلامه وآرائه في مثل ما نحلناه . ويومئذ يظهر أن الإنكار هو
الدعوى التي تقتقر إلى الشواهد والبيّنات .

وقد مضى الآن زهاء ست سنوات منذ كتبنا هذه المقالات ، دارت فيها
الأيام دورتها واضطربت فيها الحوادث اضطرابها . فلا شك أننا حين وصفنا
الحوادث كما وصفناها واستطلعنا العواقب كما استطلعناها ، لم نقم على حكم
المعرة رأياً كذبه الواقع وأنكره الحق الصادع ، ولم ننحله قولاً يزرى بصائب
فهمه أو يقدح في صادق حكمه . فإن كنا وافقناه فقد أرضيناه ، وإن كنا
خالفناه فما أخجلناه .

ومن محاسن الاتفاق أن تحتفل الأمم العربية بتمجيد أبي العلاء وهي
تتطلع إلى استقلال كريم يرضى الحكيم العربي الصميم ، وتنهض إلى مجد
طريف يستجد لها معالم المجد القديم ، وأن تعاد « رجعة أبي العلاء » في طبعتها
الثانية والدعوة إلى الاحتفال جارية إلى مجراها ، ووفود الحجيج المعري
مستبقة إلى ملتقاها . فهي تحية في الأوان ، وقربان على ذلك الحراب . . .
مزاجه الشكر والعرفان ؟

عباس محمود العقاد

تمهيد

منذ سنة وشهور نشرت الصحف من أنباء سورية « أن حكومتها
فرغت من مراجعة رسم التابوت الذي أزمعت إقامته في المعرة على قبر
أبي العلاء ، وأنها تعد العدة للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاته ،
أو على ميلاده كما هو الأصوب .

فالمعري كاره الحياة يعاد طوعا أو كرها إلى الحياة كرة أخرى ! .
خطر لي هذا الخاطر فأحببت أن أتخيل « رهن المحبين » يجوس بيننا
خلال الديار ، ويتمرس بأحوال الأمم في عالمنا الحاضر ، فماذا هو قائل ؟
وماذا هو فاعل ؟ .

لا شك أن أحوالا كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودة
في أيام أبي العلاء ، ولا شك أننا واجدون في كلامه حُكما مكشوفاً أو ملفوفاً
على جميع تلك الأحوال ، فأما ما يختلف من شؤون زماننا وزمانه فهل يستطيع

قياسه والنفاذ إلى رأى أبى العلاء فيه وفقاً لذلك القياس ؟ وهل فى مقدورنا نحن أبناء هذا الزمن أن ندعو الحكيم إلى الجهر برأيه فيه ؟ .
 ذلك ما قد حاولناه فى هذه الصفحات ^(١) ، ونحسب أننا قد أصبنا فيه
 بعض التوفيق ، ان تعذر التوفيق كله فى مجال الفرض والتخمين .

ومضت فترة ولم نسمع خبراً عن المحفل المنظور : هل تم بناء الضريح ؟
 وهل تم نحت التابوت ؟ وهل تمت العدة ؟ وهل شُرِيتْ الدور التى تحجب
 قبر الحكيم ؟ الأرجح أن هذا كله ماض فى طريق التمام ، وأن المحفل
 المنظور قائم فى موعد قريب . . . لكن أبا العلاء الذى بعثناه وأطفناه بالعالم
 كله مع بعض تلاميذه قد بلغ غاية المطاف ، وسَمَّ المضيفين والأضياف ،
 وأحب أن يثوب إلى داره وأن يقر فى قراره . فنحن هنا مثبتون قصيداً لأبى
 علائنا يودع به من سوف يستقبلونه ، ويعتذر به لمن يسكونه فى الدنيا ولا
 يرسلونه ، ويقول أو نقول فى مكانه ، ما ينبغى أن يجرى على لسانه . وذلك
 هو نشيد الوداع فى ختام هذه الصفحات ، أنابنا فى نظمه على سنة الزوميات ،
 فله الحسنة منه ، وعلينا نحن السيئات .

(١) نشرت هذه المقالات والأبواب فى صحيفة البلاغ الغراء ما عدا الأربع الأخيرة
 فلم يسبق نشرها .

قيل ان بعض المكتبات الإيطالية أهابت بالأدباء من العرب أن يوافوها
باسم الأديب الذي تجتمع فيه خصائص العبقرية العربية ، فأجمعت الآراء على
أنه هو أبو العلاء .

وقواعد الانتخاب ليست بمقطع الرأى فى مزايا الفنون والآداب ، ولكننا
نراها فى هذه الفتوى قد حكمت بالصواب ، وأجابت أحسن الجواب . إذ
الحقيقة أن حكيم المعرة خير من يمثل الذهن العربى والسليقة « السامية » غير
مستثنى فى ذلك أحد حتى صاحبه أبو الطيب . . . لأن تمثيل الذهن غير
تمثيل « الطبيعة العملية » التى يُرشد فيها أبو الطيب للمكان الأول بين
شعراء الضاد . وأبو العلاء هو الذى يمثل الذهن العربى فى تفكيره وفى
مقاييسه وفى نظراته إلى الدنيا ، دون سائر المفكرين من الشعراء .

وعسى أن تكون هذه الآراء التى وضعناها على لسانه وقسناها إلى
المعهود من كلامه هى ترجمان الذهن العربى حين ينظر إلى حقائق العالم فى
زماننا الحديث .

عباس محمود العقاد

وفاة

نقلت الصحف من أنباء سورية أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذي أزمعت إقامته في المعرة على قبر حكيمة وحكيم العرب أبي العلاء ، وأنها تعد العدة من اليوم للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاة الشيخ ، والصواب على مولده كما هو ظاهر ، فان الأمد لا يزال بعيداً بيننا وبين ذكرى وفاته ، إلا إذا كان الغرض التقريب لا التحقيق ، ولا حاجة إلى ذاك لقرب ذكرى الميلاد .

تمثلت مندوبي الحكومة السورية يحملون قرارها إلى شيخ المعرة ، ويبلغونه أنهم سينون تابوتا على قبره ، وأنهم سيدعون علماء المشرق والمغرب إلى موطنه للاحتفال بذكرى ميلاده . فماذا يقول ؟ وماذا يقولون ؟ إن الشيخ ليلملم في مضجعه بعد أن استراح فيه مئات السنين ،

وانه ليخاطب جدته اليوم كما خاطبه وهو في قيد الحياة وقيد الحبسين :
يا جدتي حسبك من رتبة أنك من أجدائهم معزلا
أملني الدهر بأحداثة فاشتقت في بطن الثرى منزلا
ثم يسأل متثاقلا : من أنتم ؟ وماذا تبغون ؟ فلا يعلمونه من هم وماذا
يبغون حتى يتهانف قائلا : أتبنون لى تابوتا ؟ أما قرأتم أو سمعتم قولي :
إن التوايت أجدات مكررة فجنب القوم سجننا في التوايت
فيحار الجماعة ، ولا يدرون بماذا يجيبون . ولكنهم حريصون على
إقامة التابوت ، وعلى تمجيد الرجل وتشريف مدفنه وتشريف ذكره ،
وسيكون بينهم ولا ريب أناس ممن عركوا السياسة وحذقوا أساليب الخطاب
والتدرج في الجملة والإرضاء ، فيقول قائل منهم : أيأبي مولانا الكرامة
والتشريف !

فيجيب الشيخ :

لا تكرموا جسدى إذا ما حل بي ريب المنون فلا فضيلة للجسد
ثم يقول :

إذا أنا واراني التراب نخلنى وما أنا فيه ، فالتراب مؤتى !
ثم يقول كما قال من قبل :

أأرغب في الصيت بين الأنا م ، وكم خمل النابه الصيت
وحسب الفتى أنه مائت وهل يعرف الشرف الميت ؟

فيلهم أحدهم أن يراجعه بيت من كلامه ، وأن يذكره أنه ليس بميت
وإنما هو حي خالد ، أو ليس هو القائل :

وجدت الناس ميتا مثل حي بحسن الذكر أو حيا كميت
فيأنس أبو العلاء إلى ما سمع ، ويعجبه أن يروى له شعره بعد مئات
السنين ، ويسألهم : وما تريدون الآن من جمع المجموع حول هذا التابوت
الذي تبونونه ؟ أتراكم تمدحونني وأنا القائل :

إن مدحوني ساءني مدحهم وخلصت في الثرى سُخت
فيجيبه أريب كيس من القوم يعرف كيف يتسلل إلى كمين الرضى من
سريرة الشيخ ، ويقول له : بل ثنى على أنفسنا وعلى بلادنا بما أنجبت
من فضلك وأحيت من ذكرك وحفظت من أثرك ، فأنما يعيننا ولا يعيبك
أن ننسى هذا وتتمادى في نسيانه ، ولن يضيرك أن نكف عن مديحك وأنت
القائل عرفانا بقدرك :

فلا وأبيك ما أخشى انتقاصا ولا وأبيك ما أرجو ازديادا
ولكنه يضيرنا كل الضير أن يثنى عليك الغرباء ونحن سكوت ، وأن
يمدح الناس من ملل الأرض حكماءهم وشعراءهم ولا نمدحك ونشيد بمنابك
وسجايك .

وكانما يطلق ألسنتهم إصغاء الشيخ وارتياحه وما يعهدونه فيه من حب
الصراحة والفكاهة فيقول منهم قائل : ثم ماذا يخيفك اليوم من المديح

وقصاراك من خوفه أن تحسب أنك سخت في باطن الأرض ؟ ! لقد أصبح
الخيال حقاً والحسبان واقعاً ، وجربت بطن الثرى مئات السنين . . . فلا ضير
عليك اليوم أن تسمع من المديح الدواوين والأسفار !

فيضحك الشيخ ويتفتح للحديث ويجرى معهم في مجراهم فيقول :
لا يغرنكم يا أبنائي أنتى أزهد في المديح وأنتى أسكن إلى الزهد فيه وفي المجد
والسلطان ، فما أبرئ نفسي من كبرياء ، وما أزعم أنتى اخترت العزلة والفاقة
عن صغر في المطامع أو قناعة بالحظ الوضيع ، ولكننى لا أرى لأحد عيشاً في
هذه الدنيا إلا أن يسودها أو يستخف بها ويعرض عنها :

ذر الدنيا إذا لم تحظ منها وكن فيها كثيراً أو قليلاً
وأصبح واحد الرجلين : إما مليكاً في المعاشر أو أبيعلاً
وما أتيح لى أن أصبح مليكاً في المعاشر ، فأصبحت باختيارى راهباً
متبتلاً أعرض عن الدنيا ولا أريها أنها هى التى أعرضت عني وبخست
من حقى !

إذا كان هذا الترب يجمع بيننا فأهل الرزايا مثل أهل الممالك
فيقول قائل منهم : نعم أيها الإمام . لقد كررناك حتى فهمناك كما قلت
في بعض شعرك :

يكررنى ليفهمنى رجال كما كررت معنى مستعادا

فما تخفى علينا خافية من هواجس ضميرك ولا تغيب عنا خالجة من خواج
طبعك ، وإنك لمناضلٌ مكبوح ومغامر محبوس ، وأن نفس الزاهد منك
لمقرونة بنفس السيد الذي لا يدين في الحياة لغير حكمه ، ويأنف أن يموت
حتف أنفه ، وقد عشت هكذا في عالم الرأى أمراً لا يأمرك الحاكمون ، وأبيّاً
لا يخضعك المغلوبون ، وتمنيت يوماً :

من السعد في دنياك أن يهلك الفتى بهيجاء يغشى أهلها الطعن والضربا
فإن قبيحاً بالمسود ضجعة على فرشه يشكو إلى النفر الكربا
وترددت بين القلم والسيف فقلت :

وإن العز في رمح وترس لأظهر منه في قلم ودرج
وما أختار أنى الملك يجي إلى المال من مكس وخرج
فدع إلفيك من عرب وعجم إلى حلفيك من قتب^(١) وسرج
سراجك في الدجنة عين ضار وإلا فالكواكب خير سرج
ويقول الشيخ مبتسماً : لقد أحصيتهم على فلتات اللسان وشوارد الأمانى
وشطحات الأوهام ، وعلمت بوصيتي حين قلت :

اقرأ كلامي إذا ما ضمنى جدتي فانه لك ممن قاله خلف
ولكني كنت أوتر لو نسيت بعضه ومنه هذا الذي ذكرتموه ، فما أحسب
إلا أنني حاذفه من جملة كلامي لو تمكنت من تلك الأوراق التي حفظتموه
فيها . فاحذفوه !

(١) القتب : الرجل

ثم يخطر لبعض الحاضرين أنها فرصة لا تُضَيِّع ، فيسألونه : ألا نحمل إليك تلك الأوراق فنراجعك فيما تغير منها وما تأمر بمحوه ، بعد أن تنتظر في الدنيا نظرة وتطلع منها على ما استجد من حالها وتبدل من خلائق أهلها .
 فإذا الشيخ يتجههم هنيهة وقد عاودته سوداؤه وانقباض صدره وذهب يقول :
 أما خلائق أهل الدنيا فأنما يتبدل الرأي فيها لمن يراهم على إحدى حالتين :

فمن قال إنهم كانوا في غابر زمانهم أهل ورع وصلاح وأصحاب كرم وتقوى . ثم عدت عليهم عوادي الزمن فصدوا عن سبيل الخير ، فذلك خليق^١ أن يصف منهم شأنًا ، ثم يعود بهم إلى شأن غير الذي وصف .
 ومن قال إنهم اليوم جاهلون وغدًا يعلمون ، وأنهم اليوم على عوج وغدًا يستقيمون ، فذلك أيضًا خليق^٢ بتبديل الرأي في الناس عصرًا بعد عصر وأمة بعد أمة .

وما أنا وهذا أو ذاك ؟ أنا قد بلوتهم فعلمت أنهم هكذا كانوا منذ كانوا .

وهكذا كان أهل الأرض مذفطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا ثم بلوتهم ورجوت صلاحهم واستأنفت الرجاء فيهم وعجبت من أمرى معهم على شدة علمي بهم ، وما زلت أستغرب من تلك الحال التي أحاولها وتحاولني :

وأعجب مني كيف أخطئ دائماً على أنني من أعرف الناس بالناس
حتى انتهيت إلى رأى لا يتبدل :

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطيع
نعم ذاك الذي ما استطعته ولن تستطيعوه ، ولكن :

نزول كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ما ترى
وتذهبون في كل مذهب وتطمعون في كل مطمع ، ثم تعلمون بعد خطأ
لا تزالون ترجعون إليه أنه

حكم جرى للمليك فينا ونحن في الأصل أغبياء !!
فهو داء عياء ليس له شفاء ، وكنت أزعج أن الموت يبرىء الخلائق منه
فها أنا ذا معكم لم أكأد أشعر بظل الحياة حتى استرجعت من دائها كل ما كنت
أشكوه وأعالجه وأرجو الغلبة عليه . . . كلا يا أبنائي : لا تحذفوا حرفاً مما
كتبت في خلائق الناس ، أو احذفوه كله فما هو بضائركم أن تجهلوه ، وهو
منا ومنكم في الصميم ، وأنه لباقي في النفوس إن زال من الطروس .

تمثلت هذا الحديث بين شيخ المعرة وبعثة الحكومة السورية إليه ،
وأخال أنني على صواب حين أزعج أن الشيخ في طليعة الحكماء الذين
لا يغيرون ما قالوه في هذا المعنى بعد آلاف السنين ، لأنه لم يؤمن بالنكسة
بعد العلاج ، ولم يؤمن بالتقدم والارتقاء ، فيتطرق الخلاف من أحد البايين
إلى مجمل ما قال

لكن شيمة واحدة في حكيم المعرة إخالها لو تغيرت قليلا لتغيرت فلسفته
جميعاً من الألف إلى الياء ، ولأننى كثيراً من سقط الزند وكثيراً من
اللزوميات ، ولخرج بديوان يقرأه القارئ فلا يهجس في خاطره ذكر المعرى
المعهود ، لأن تغيير تلك الشيمة يخرجها خلقاً جديداً لا يمت بقراءة ذهن ولا
بأصرة نسب إلى ذلك الحكيم الذى عرفناه .
وموعدنا بالكلام على شيمته تلك مقال قال .

صاحبُ الجلالة المعري

قلت في ختام المقال السابق : « ان شيمةً واحدةً في حكيم المعرة أخاها
لو تغيرت قليلا لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف إلى الياء ، ولألقى كثيراً من
سقط الزند وكثيراً من الزوميات . . . »

فما هي تلك الشيمة ؟

هي السمات والوقار ، أو هي كما نقول في لغة العصر الحاضر أدب البيئة
وأصول « اللياقة »

وهذه الشيمة في الواقع وازعٌ قوى عظيم الهيمنة على جميع النفوس ،
وإن عدها بعضهم ثمانية أو ثلاثة أو أربعة في ترتيب الزواجر الأخلاقية والنفعية ،
لاعتقادهم ان الزواجر إنما تفعل في الطباع فعلها على مقدار ما يحيط بها من
ضجيج وطنين ، أو على مقدار ما لها من أسماء وعناوين ، لا على مقدار بواعثها
من الطبع ومن قوانين الاجتماع .

إن جميع الزواجر والأوامر والنواهي لا تُخرج دافعاً ولا سحتوتاً من كنز

المرأة العجوز الذى تجمعها من الدوانيق والسحاتيت ، ليكون لها بعد وفاتها مشهده « يليق » ويجرى مع العرف الشائع بين البيوت .

وإن الرجل ليقدم على جميع المحظورات غير حافل بالعقاب أو سوء المآب ، حاشا المحذور الذى « يسقطه » فى نظر الناس ويخل بقواعد المروءة فى البيئة التى هو منها ، فذلك حد لا يتخطاه إلا وقد تخطى قبله جميع الحدود واجترأ على جميع المنكرات

وإن الخمر والزنا والسرقة ، لفى درجة واحدة من التحريم فى بعض الشرائع السماوية ، ولكن الناس يجانبونها أو يستبيحونها على حسب نصيبها من الزراية فى البيئات التى يعيشون بينها ، ونعنى بها بيئة المعيشة وبيئة المعاشرة وبيئة التفكير ، وربما وجد من الناس من يباهى ببعض تلك المحظورات فى بعض بيئاته ، وإن كانت فى بيئات أخرى مجلبة العار والمذمة والنفور

وربما استخف المرء أو المرأة بكل منكور وممنوع ، إلا أن يزف بنته أو بنتها مثلاً فى شوار أقل من الشوار المصطلح عليه ، مع أنه غير ممنوع فى دين ولا فى قانون ولا فى شرع معقول ، ولكنه ممنوع فى أدب البيئة أو أدب اللياقة ، فهو إذن أصعب المنوعات .

والخلاعة هى غاية السقوط عند العرب أو عند المتكلمين باللغة العربية ، وإنما الأصل فى الخلع أنه الرجل الذى يخلعه أهله ويبرأون منه ، فهو من ثم

يجلب على نفسه أكبر العار، وإن لم يقارف شيئاً من معاصي الدين والقانون
على حسب العرف الحديث

وانهم ليجدون متسعاً من القول في كل عاص، وكل جارم، وكل آثم
إلا الخليع فلا متسع فيه من القول بعد الخلاعة... وما عسى أن يقول القائل
في خليع؟؟ تلك غاية الغايات وقصارى الموبقات، فلا ملامة ولا عتاب!
المعري مثلاً من الأمثلة البالغة على سلطان البيئة أو على سلطان أدب
«اللياقة» وأدب العرف والتقاليد

فهذا الحكيم الذي عرض على فكره كل أصل من أصول الحكمة
وكل مذهب من مذاهب الدين، فلم يقبل منها إلا ما ارتضاه برهانه، ولم
يتخذ له إماماً غير العقل في صبحه ومساءه، هو بعد هذا كله أسير «أدب
اللياقة» يمنعه هذا الأدب ما ليس يمنعه شرع ولا فلسفة ولا عقيدة
وهذا القائل:

وسَيَّانَ مَنْ أُمُّهُ حُرَّةٌ حَصَانٌ وَمَنْ أُمُّهُ زَانِيَةٌ!

هو هو الذي يأبى أن يدخل الوليد على النساء بعد بلوغه العاشرة،
ويأبى أن تذهب المرأة إلى الحمام، ويخشى على عرضها أن تخرج إلى الحج
فلا يعده فريضة على عجز النساء ولا العذارى!

ذلك هو «السمت اللائق» بالمرأة في شريعة البيئة... فالسيدة الحصان
تنجبها الأسرة الوقور لن تكون إلا على هذه الصفة، ومتى وصلنا إلى السمت

اللائق أو إلى أدب اللياقة فأبو العلاء وسائر أبناء البيئة سواء ، والفيلسوف
الذى قال :

كذب الظن لا أمام سوى الع قمل مقيا في صبحه والمساء
لا يعنيه من امامة العقل هنا إلا ما يعنى قعائد البيوت وعجائز الأمهات
والجدات ، ذوات البنات اللأئى يلتمسن الأزواج في ستر وحشمة وصيان !
ولعلنا تسهّلنا بعض التسهّل إذ قلنا : ان أبا العلاء وسائر أبناء البيئة سواء...
فانه لأشدّ تخرجاً من كثيرين ، وانه ليحظر على نفسه ما يبيحه آخرون ، وانه
ليحسب الوقار جمالا لا يدانيه جمال في الرجال ، فان حذر من الشيخوخة آفة
فانما يحذر أن يدركه الخرف :

وما أتوقّى والخطوب كثيرة من الدهر إلا أن يحل بي الهتر
وإذا رثى أباه في صباه وهو يتخيل موقف الحشر ورهبة القيامة وزحام
العطاشى على الحوض فليس ينسى أن يسأل عن ذلك الأب :
ألا ليت شعرى هل يخف وقاره إذا صار أحد في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروى مبادراً مع الناس أم يأبى الزحام فيستأنى ؟
فكأنه يقف بالدين والفلسفة عند باب العقل ، ثم يقف بالعقل عند باب
الوقار أو أدب اللياقة ، ثم لا يسأل هذا السلطان الجائر سؤالاً واحداً من تلك
الأسئلة التى كان يشنها من كل جانب على جميع السلاطين وجميع الدولات
وجميع الأحكام ، ولو أنه سأل وأباح نفسه الجواب الصريح لما أخذها بكل
تلك الصرامة ولا أحال عليها كل تلك القيود

أما مرجع ذلك السلطان الجائر من حياة أبي العلاء فهو أسباب كثيرة
وليس بسبب واحد :

مرجعه إلى تربية الأسرة

فقد كان أبوه وأمه من ذوى الوجاهة والصلاح ، وكان آل أبيه يتوارثون
القضاء فى بلده ويعيشون بين الناس كما يعيش رجال الدين ورجال الحكم
على شعائر المروءة والتعفف والأنفة من غشيان مواقع الشبهات ، وعلى الهيبة
التي لا غنى عنها لمن يسوسون الرعية باسم الله واسم السلطان .
ومرجعه إلى الخليقة العربية .

فقد كان أبو العلاء عربى النجر عربى الطبيعة ، يفهم أن العرض قوام
الشرف والعزة ، وأن الابتذال هو الهوان الذى ما بعده هوان ، وأن الرجل
الذى يجترى عليه المجترى بمذمة أو سخرية هو حى مستباح ، وأن من
لا حياء له لا حياة له ولا خير فيه ، وأن السنة ما سنه الآباء وجرى عليه العرف
وسارت به الأمثال وحسنت به القدوة .

ومرجعه إلى فقد بصره .

فإن الضرير قد يصيبه السخر والملام لأمر يواقعها البصير ولا من يسخر به
أو يلومه . وأن البصير قد يمارس من الشهوات ما يأمن الفضيحة فيه ، لأمانه من
أن يطلع عليه أحد غيره ، وليس ذلك فى مقدور الضرير : فاما الفضيحة والعار
وأما الزهد والوقار .

ومرجعه إلى كبريائه وعزة نفسه .

فان الأعمى قد تهون عليه الفضيحة في سبيل الشهوة ، إلا أن تكون له كبرياء تأبى له المهانة والابتذال ، فعند ذلك يوازن بين ما يكسب بالشهوة وبين ما يخسر بالابتذال ، فيهون عليه فقد الشهوات واقتناء الكرامة .
ولقد رأينا أن أبا العلاء كان لا يرضى من الدنيا إلا بالسيادة عليها أو بالإعراض عنها ، فاما الملك وإما الرهبانية ولا توسط عنده بين الأمرين .
فلا يحسن أحد أن « فكرة الملك » عارضة في ذهنه كما يعرض الخاطر في خلد الشاعر ، فان « للمجد الدينوى » لنزعة مكبوتة في قرارة ضميره يدل عليها شعره ونثره ، ولا تزال غالبه عليه في جمحات الأهواء وفلتات اللسان .
فسرعان ما يثب إليها كلما عرضت لها لحظة ظهور ، وله في ذلك أبيات تعد بالعشرات منها :

لاملك لى وأرى الدنيا تحاصرني وما حجبت وقد لاقيت احصارا
ومنها :

ما سرنى بقناعة أوتيتها فى العيش ملكا غالبٍ وذمار
ومنها :

لو شاء ربى لصاغنى ملكاً أو ملكاً ... ليس يعجز القدر !
ومنها :

وزهدنى فى هضبة المجد خبرتى بأن قرارات الرجال وهود

ومنها :

لا كانت الدنيا فليس يسرنى انى خليقتها ولا محمودها

ومنها :

محمودنا الله والمسعود خاتمه فعدّ عن ذكر محمود ومسعود
ملكان لو أننى خيرت ملكهما وعود صلب ، أشار العقل بالعود

ومنها :

ما سرنى أنى إمام زمانه تلقى إلى من الأمور مقال

ومنها :

أسر إن كنت محموداً على ضعفى ولا أسر بأنى الملك محمود
وقد أعجبه أن يراه راءً فى الكرى يلبس تاجاً فقال :

رأى فى الكرى رجل كأنى من الذهب اتخذت غشاء راسى
قلنسوة خصصت بها نضارا كهزمز أو ملك أولى خراس
فقلت معبراً : ذهب ذهابى وتلك نباهة لى فى اندراسى

ولعل الرأى هو أبو العلاء نفسه قد أظهر له المنام ما أخفاه العقل الباطن
من نوازع الكبرياء ، أو لعله صاحب خبيث قد استطلع طلعه وعرف شموخ
طبعه فرأى المنام حقاً أو لفقه له ليغنى رضاه

وكأنه لما فاته التاج وسوس له « عقله الباطن » فى المنام فرأى تلك الرؤيا ،

ووسوس له فى اليقظة فقال فى المفاضلة بين تاج الملك وتاج الزاهد :

والتاج تقوى الله لا ما رصعوا ليكون زيناً للأمر الفاتح
وأمثال هذه الأبيات وعشرات مثلها لا تبدر من رجل يمزح حين يقول :
كن في الدنيا كثيراً أو قليلاً ، فاما مليكاً أو راهباً .. ثم تدركه الأنفة أن
يأكل من رزق غيره مع الرهبانية فيقول :

ويعجبني فعل الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحاح
كلا . ذلك رجل قد تغلغل الأنفة في أعماق طبعه ، فما هي عنده كلمة
مجاز أو كلمة مزاح أو شطحة خيال ..

تلك مراجع شتى لعادة السميت أو « أدب اللياقة » في خلائق أبي العلاء ،
ومرجع آخر نضيفه إليها ولا نحسبه قليل الأثر في تكوين تلك العادة : أنه
كان ضعيف البنية ضعيف الخوارج الجسدية ... فلم تغلبه شهوات اللحم والدم
ولم يعسر عليه ضبطها في عنان السميت مدى تلك السنين الطوال .

على هذه المراجع جميعها قام « أدب اللياقة » في خلائق أبي العلاء ،
أو قامت تلك الشيمة التي قلنا إنها لو تغيرت قليلاً لخرج أبو العلاء رجلاً آخر :
من يقرأه لا يهجم في خاطره ذكر المعري المعهود ، وموعداً المقال التالي بجواب

سؤال السائلين : هل كان تغييرها من المستطاع ؟

وماذا كان المعري صانعاً لو قدر على تغييرها ؟ ؟

عالم السِّريرة

قلنا في ختام مقالنا السابق ان الخصلة التي لو تغيرت في أبي العلاء غيرت معيشته كلها أو غيرت مذهبه في الحياة كله - هي خصلة الوقار وكرهه السخر والمهانة أو هي خصلة « اللياقة » كما نسميها في العصر الحديث .

وقلنا ان هذه الخصلة مردودة فيه إلى مراجع كثيرة ، وهي التربية في بيت العلم والوجاهة ، والسليقة العربية ، وفقد البصر ، والكبرياء ، وضعف البنية ضعفاً أتاح له أن يكبح نوازع اللحم والدم ويقمع دوافع الشهوات وسألنا : هل كان من المستطاع تغيير هذه الخصلة ؟ وماذا كان المعرى صانعا لو أنها تغيرت بعض التغيير أو كل التغيير ؟

وعندنا أن تغييرها كان مستطاعا كما يستطاع كل تغيير في عوارض

الصفات

فان تلك المراجع التي أنشأت فيه حب الوقار ليس من شأنها أن تنزع بصاحبها إلى النسك والزهد في الحياة إلا إذا اجتمعت في وقت واحد . أما إذا افترقت ولو بعض الافتراق فليس النسك لصاحبها بزام ، وليس حتماً عليه أن يأنف من نعيم الحياة .

إذ ليس كل من تربى في بيت من بيوت العلم والدين والوجاهة بصادف عن اللذات والشهوات ، أو بعاكف على الصوامع والدور التي يسميها المحابس ، والأمثلة فيما نراه وفيما نقرأ كثيرات

وليس كل عربي تمنعه صيانة العرض أن يعاقر الخمر ويستطيب الجون ، فان امرأ القيس وطرفة والأعشى عرب في الصميم من العروبة ، ومجونهم مع ذلك كمجون الشعراء من أبناء الأمم الأخرى في عهود الجاهلية وعهود الأديان .

وليس كل ضرير عازفاً عن مواقع الشبهات ، فان بشاراً قد ولد ضريراً وإنه لأسبق إلى الشبهات من المبصرين .

وليس كل ضعيف البنية معرضاً عن حظوظ الأقوياء والأشداء ، إذ ربما كان ضعف البنية سبباً إلى الإفراط في التماس تلك الحظوظ ، لأنه يضعف الإرادة فلا تقوى على كبش سورات الطبع ووساوس الإغراء .

وكذلك ليس المتكبر مترفعاً أبداً عن الطرب والسرور ؛ لأنه إذا كان بصيراً لم يكن في طربه وسروره ما يجلب عليه السخر والمهانة ، أو يعرضه

للتغامز والتقرير بل لعله يُرضى كبريائه أحياناً من طريق غزوات الحب ومظاهر البذخ والثراء .

أما إذا اجتمعت هذه الأسباب كلها فمن الصعب أن يفلت الطبع الواحد من أوهاقها ، ومن الصعب أن يوفق بينها جميعاً إلا كما وفق بينها أبو العلاء ، أى باجتناّب الدنيا والتزام العزلة والقناعة .

لكن افتراقها كان ميسوراً لا استحالة فيه ، فلم يكن ضربة لازب أن يصاب أبو العلاء بالجدرى في طفولته الباكرة ، ولم يكن ضربة لازب إذا أصيب به أن يفقد بصره وأن يعيش بعد ذلك رهن المحسين . وماذا يبقى من معيشة أبي العلاء أو من فلسفته في المعيشة إذا لم يكن رهن المحسين ؟

أكبر الظن في هذه الحالة أنه كان يجمع بين النواسية والخيامية في نمط واحد ، أو كان يخرج لنا نمطاً جديداً يضاف إلى نمط النواسى ونمط الخيام في ديوان الآداب الشرقية ، ويكون لا ريب نمطاً بديعاً خليقاً بذلك الذهن الوقاد وذلك الطبع الأصيل .

وفي المعرى جميع العناصر التي تُخرج منه ذلك النمط البديع ، ونعني به النمط الذي يذكرك عمر الخيام أو يذكرك الحسن بن هانئ قبل أن يذكرك أبا العلاء الذي عهدناه ودرسناه

عنده الشك في أخلاق الناس وعقائدهم فهو القائل :

ما فيهم بر ولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب

وهو القائل :

توهمت يا مغرور أنك دينٌ علىَّ يمين الله : مالك دين !

وهو القائل :

يحرم فيكم الصهباء صباحا ويشربها على عمد مساء

وهو القائل :

وما يحجون من دين ولا نسك وإنما ذاك افراط من الأشر

وهو القائل وفيه كل سخره بخلائق الناس وخلائق نفسه :

عرفتك فاعلم إن ذمت خلائقي ورباك بعضي : أن كلك رائبي !

وعنده الرغبة في الحياة والشغف بمتاع الدنيا ، وكلامه في ذلك كثير .

منه قوله :

تناهبت العيش النفوسُ بغرة فان كنت تستطيع النهاب فناهبِ

ومنه قوله :

والمرء ليس بزاهد في عادة لكنه يترقب الإمكانا

ومنه قوله وهو أصرح مما تقدم :

ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عني خسنه

وعنده الشك في عقي النفس وما يستتبعه ذلك الشك من قلة المبالاة

والمساواة بين المحامد والمثالب ، ولعل أوجز كلامه في هذا المعنى قوله :

وقد زعموا الأفلاك يدركها البلى فان كان حقاً فالنجاسة كالطهر
أما الخمر فلا أستبعد أن الشيخ قد ذاقها في بعض الأديرة التي كان يغشاها
للدرس ومراجعة المذاهب ، فان أوصافه لها أوصاف من لا يقتصر في العلم بها
على السماع .

بل لا أستبعد أنه كان يذوقها من حين إلى حين في بعض أيام العزلة كما
ينم عليه قوله :

فلا تشربنها ما حييت ، وان تمل إلى الغى فاشربها بغير نديم
وإنك لتقرأ نهيهِ الكثير عن الخمر فتلمس فيه نزاعاً شديداً إليها يغالبه
ويعاوده في معظم أيامه كما يؤخذ من قوله :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
أوفى قوله :

أيأتى نبيٌّ يجعل الخمر طلبة فتحمل شيئاً من همومي وأحزاني ؟
وهيهات لو حلت لما كنت شاربا مخففة في الحلم كفة ميزاني !
أو من قوله :

لو كانت الخمر حلاً ما سمحت بها لنفسي الدهر لا سراً ولا علناً
أو من قوله :

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها بالعقل أفضل أنصاري وأعواني

أو من قوله :

لو كان قدساً^(١) ثم هبت ريحها بهضابه لم يبق فيه وقار
لو يحمل الشرب الرواسي أو هموا أن ليس فوق ظهورهم أوقار
أو من قوله :

وما قصرت لي أم ليلي بشربها جناس أوقات على طيال
أو من قوله :

لا ينزلن بانطاكية ورع كم حلل الدين عقد للزنابير
بها مدام كذوب التبر تمزجه للشاربين وجوه كاللدناير
أو من قوله :

لقد خدعتني «أم دفر»^(٢) وأصبحت مؤيدة من أم ليلي بسلطان
إذا أخذت قسطاً من العقل هذه فتلك لها في ضلة المرء قسطان
أو من قوله :

لا أشرب الراح ولو ضمنت زهاب لوعاتي وأحزاني
مخففاً ميزان حلمي بها كأنني ما خف ميزاني !
إلى أضعاف هذه الأقوال وما شاكلها في الزوميات خاصة ، وهي من
بعض الوجوه أشبه الأشياء بمفكراته الشخصية ، وهذا عدا ما جاء في رسالة
الغفران من وصف مجالس الشراب ولذات الشاربين في الدنيا والآخرة .

(١) اسم جبل (٢) كناية عن الدنيا

فان لم يكن في كل ما تقدم دلالة على أن الشيخ قد ذاق الخمرة وعاد إلى مذاقها بعد لزوم المحسين ففيه دلالة على اشتهاؤها ومغالبة نفسه عليها ، مغالبة ليس بالهين نسيانها وصرفها من ذهنه وهو اجس ضميره .

ويرجح الظن بنزوع المعري هذه النزعة بين الخيامية والنواسية انه كان يعيش في عصر فتنة واضطراب ، وجزع على الأنفس والأعراض ، وتلك عصور يشيع فيها الفساد وتندر فيها العصمة ويكثر فيها اغتنام الفرص والتهافت على اللذات ، ولا سيما على ملتقى الطريق بين حضارة الروم وحضارة العرب وحضارة الفرس ، وكلها في ذلك العهد حضارات أخذت في الزوال ولم تستبق من المناعة والتماسك ما يزجر النفوس ويعصم الأخلاق ويحيي شرائع الآداب لكن لماذا نقول الخيامية والنواسية ونفرق بين الطريقين وكلا الرجلين - الخيام وأبو نواس - معاقر كأسٍ مقبلٌ على متعة ، مستخفٌ بالذم والثناء ؟

نقول ذلك لأنهما على اتفاقهما في العمل مختلفان في أسبابه ودواعيه وغاياته فالخيام يشرب وينعم لأنه عاجل مشكلات الوجود فاستعصى عليه حلها فقتنع بالساعة التي هو فيها وعمد إلى الكأس يغرق فيها شكوكه وأسفه على بطلان الحياة وعاقبة الحياة .

أما أبو نواس فلا شكوك عنده ولا مشكلات ، وإنما هو شارب خمر لأنه يشتهيها ويتصدى لعقاب الآخرة في سبيلها ، فالآخرة عنده حقيقة مفروغ

منها وليست قضية في طريق الحل والجلاء . كما كانت في مذهب عمر الخيام .
أما أبو العلاء فهو قريب من أبي نواس في الثقافة العربية وقريب من
الخيام في التفكير والبحث عن أصول الأشياء ، فهو لا يكون كهذا ولا كذاك
حين يستسلم لمتاع الحياة ، ولكنه يكون نمطاً وحده يأخذ من كليهما بما هو
قريب إليه ، وقد يترجم هذا النمط بعض الترجمة قوله :

السيف والرمح قد أودى زمانهما فهل لكفك في عود ومضرب
إلا أننا نسأل ويحق لنا السؤال : هل كان حتماً لزاماً على المعري إذا هو
سلم من الجدرى وعاش بصيراً بين أهل زمانه أن يدرس الدراسة التي تشككه
وتدفع به إلى البحث في أصول الأشياء ؟ ألم يكن من الجائز أن استغراقه في
الدراسة إنما كان نتيجة لفقد بصره وانصرافه عن الدراسات الأخرى التي
يشتغل بها طلاب المناصب والمساعي الدنيوية ؟ ألم يكن من الجائز أن يدرس
- وهو طفل بصير - تلك الدروس التي ترشحه للقضاء كما رشحت بعض أهله
من قبله ؟ ألم يكن من الجائز إذا علمه أهله ليرشحوه لوظيفة القضاء أن يكتفى
بدروسه الفقهية ولا يسترسل في دروس الحكمة والفلسفة وشكوك الأديان ؟؟
كل ذلك مما يجوز ، وقد ذكر هو المراتب والتطلع إليها في مواضع من
شعره ، وذكر الفتيا فقال :

قلدتني الفتيا فتوَّجني غداً تاجاً باعفاً من التقليد
وقال يخاطب أبناء بلده :

ياقوم لو كنت أميراً لكم ذمتم في الغيب ذلك الأمير
 فاذا قنع الطفل أبو العلاء بدروس الوظائف والمساعي الدنيوية فرمى
 القضاء وعاش عيشة القضاة في زمانه فلا يطيل الدرس ولا يتشعب في مناحيه
 بعيداً من فقه الدين وفتاوى القضايا الشرعية ، وإذا تمادى به البحث مرة
 ودعاه إلى ذلك بعض ما يسمع ويرى من حوله فما هي إلا خطرة عارضة ،
 لا تلبث أن تذهب كما جاءت أو تنطوى في خبايا النفس مزويةً عن الأسماع
 والأبصار .

لقد كان إذن يجد الوظيفة والبصر ولكنه يعيش بعد موته في ظلام التاريخ
 لقد كان يعيش إذن جاهلاً حقيقة نفسه ويموت مجهولاً بين عارفيه منذ
 قضى نحبه إلى أن يشاء الله

وسنسأل أبا العلاء في المقال التالي أي الحظوظ يختار .

أبو العلاء هو أبو العلاء

قال الرسول :

ألم يجمع شيخنا العظيم رأياً فيما اختار من تلك الشخوص ؟

قال أبو العلاء :

شيخنا العظيم قد اختار وفرغ من اختياره

قال الرسول :

أفياذن مولاي أن أسأله عما اختار منها ؟

قال أبو العلاء :

بل هو يسألك ماذا أنت مختار له من تلك الشخوص ، فلهذه يهتدى

منك بهدى فيما يؤثره لنفسه ، من شكول حياته وأحوال وجوده

قال الرسول :

عفوك اللهم وغفرانك ! أفثلى يهتدى أبا العلاء ؟ وفيه أهديه تعاليت ربى

وتباركت ؟ فيما يأخذ من شأنه وفيما يدع ، وفيما يؤثر لنفسه وفيما يأبى ! ماذا

أسمع منك مولاي ؟ وهل بلغ من قدرى أن أصبح هدفاً لسخرتك إن كنت
ساخراً ، وغرضاً للتهمك منك إن طاب لك أن ترجع إلى تهكمك القديم ؟
قال أبو العلاء :

ولا كل هذا يا بنى ... ما أنا بساخر منك ولا متهم . وإنما يعجز
الإنسان غاية العجز حين يختار لنفسه ، ويقدر غاية القدرة حين يختار لغيره ،
وليس صاحب الحكمة بدعا في هذه السنة التي شملت أبناء آدم وحواء ، بل
لعل الحيرة أعظم والتردد أزم حين يختار الحكيم وينظر في مختلف الشئون ،
قياساً على كثرة ما يرى وكثرة ما يستوعب من المزايا والنقائص ، وكثرة ما يعلم
للمسألة الواحدة من وجوه وأطوار . فلا جرم تكون أهلاً للسؤال الذى سألتك
وأنا أحوج إلى جوابه منك إلى جوابي ، فأنما أنظر إلى شخوصي كما ينظر
الأب إلى أبنائه فلا أدري من منهم الأثير الراجح ومن منهم المزوى المرجوح .
وأنا بعد صاحب الاختيار ومن يقع عليه الاختيار ، وأنا بعد الشاهد والمشهود
عليه ، فما بالك تستغرب مني أن آنس إلى خاطر يخطر لك أو ظن يحوم في
خلدك ! ... قل يا بنى ولا حرج عليك من حكمة حكيملك العظيم كما تدعوه .
ما أنت بجاهل وما أنا بعليم .

وما العلماء والجهال إلا قريب حين تنظر من قريب

قال الرسول وهو مأخوذ :

ذلك علم أستفيده منك إذ أنت تنكر العلم يا مولاي على نفسك ،

وقصارى أن أسألك عن شخص شخص من شخوصك التي تعرض عليك ،
وأن تقول لى ما تحمده منها وما ليس عندك بحميد ، وأنا الراجح بما أسمع ، وإن
لم يبلغ من رأيي أن يضاهى رأى الشيخ فيما يريد وما ياباه .

قال أبو العلاء :

قل على بركة الله

قال الرسول :

ذلك قاضى قضاة المعرفة أول تلك الشخوص ، أتمثله سيداً جليلاً ينظر إلى
الدنيا وتنظر الدنيا إليه ، وينعم بنصيب من الحياة يعلن منه ما يعلن ويبطن
منه ما يبطن ، ويسأله الناس فى العلم والدين ، ويقصده القاصدون فيما يشكل
عليهم من قضايا الفكر ، وقضايا المصالح والحاجات ...

ومضى الرسول يطنب فى ماثر قاضى القضاة وهو ينظر إلى وجه أبى العلاء
فيراه يبتسم ويصغى فى غير قليل من الرحمة والحدب ، وغير قليل من العجب
والاستجهاى ، ويتأنى الرسول فى كلامه ويكشف بعض الشئ من اطنابه
وغلوائه ، فيعمد الشيخ إلى الكلام من لا ينشط إليه ، ويقول للرسول سائلاً :

فى أقاليم الهند والصين ألوف وألوف من أجيال البشر الأحياء فى هذا
الزمان ، أفترانى لو عدمت الحياة أحسب نفسى حياً لأنهم أحياء ، وأزعم أنتى
أعيش لأنهم يعيشون ؟

قال الرسول :

كلا يا مولاي ، فان لهم حياتهم وللشيخ حياته ، ولهم أعمارهم المعدودة
وللشيخ عمره المحدود .

قال شيخ المعرفة :

فتح الله عليك . فما أنا وذلك القاضى الذى وصفت ؟ وما نصيبى من الحياة
ان عاش هو وسمى نفسه أبا العلاء ؟ هو رجل من أهل الصين ما سمعنا به
فى الأولين !

إنما أبو العلاء أبو العلاء حين يعن فى أغوار ضميره فيلمح هناك هواجس
قلبه وشكوك عقله ، ومادة علمه واختباره وآثار نعمته وحرمانه ، وما حصل
أو ضيع من أحلامه وأشجانه ، وغاية ما ينتهى من ظنه أو يقينه ، فما أنا وقاضى
قضاتك يا بنى ؟ ذره وما اختاره يعيش كما اختار له أمراؤه وطلاب عدله
وانصافه ، فان الصلة بينى وبينه كما قلت لك كالصلة بينى وبين ألوف ممن
عاشوا أو يعيشون فى أرجاء الهند والصين ، فما اجتاز صاحبنا من حقيقة أبى
العلاء عتبة الدار ، ولا صعد منها إلى ذروة ولا هبط إلى قرار .

قال الرسول :

فما قول شيخنا أفاده الله فى الشاعر النواسى يحيا حياته وينعم نعيمه ،
ويرتع فى لذات العيش كما رتع ، وينظم الشعر كما نظم ، ولا يحرم الشهرة بعد
زمانه ، ولا الخطوة بين معاصريه وأقرانه .

قال أبو العلاء متهافئاً مستكرهاً :

لو سرفني أن أعيش عيشه لسرفني أن أخلد خلوده وأن أشتهر اشتهاره في
زمانه وبعد زمانه : ذاك نديم يا بني وتلك غاية مُرتقاه ، فكيف تراني أوثر
مكان النديم ومن فوقه مكان من ينادمه ويرجو مسرته ويبتغي صلاته
وعطاياه ؟

رحم الله ابن هاني ، ما اقترب من الأفق إلا حين قال :

إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

ثم أبي أن يمتحنها وامتحنها أنا في كل يوم ، وشرب من يدها الخمر لذة
للشاربين وكرهت أنا أن أقبل الضيافة من عدو بغيض ، ولو لقيته لسألته :
مابالك لم تمتحنها يرحمك الله وتركتها محنة لك لاتألوك امتحاناً في ليل ولانهار ؟
خذه يا بني إلى جانب قاضيك فما كان لي من أرب في هذا ولا ذاك
فوجم الرسول التلميذ هنيئة ، ثم قال وهو يقدم ويحجم : هل أسأل
الشيخ عن الفارسي عمر الخيام ؟

فهمش أبو العلاء وقال نعم تسأل ، فماذا تخالني مجيباً إن سألت عنه ؟
قال التلميذ : أحسب أنني فطنت لاختيار أستاذنا من تلك الشخوص
التي عرضت عليه .

إن أستاذنا ليختار الفيلسوف الفارسي وأنه ليرضى عن بحثه وزهده ،
وأنه ليقنع كما قنع برغيفه وقدحه وحبيبه ، وإنه لينظر بعد ذلك في السماوات

والأرضين بعلم المنجم وخبرة الحكيم ، وإنه ليتبوأ من سيرة الخلف بعد زمانه
مكان الهداية والتعليم ، لا مكان السمير والنديم !
فبدا على وجه الحكيم الضرير قطوب يسير ، ولكنه قطوب الروية
والمراجعة لا قطوب الكدر والانقباض ، وهمس بين شفقيه كأنه في
حديث نجوى :

أتراني أكون نسخة منقولة من أحد كائنات ما كان ؟

ثم جهر قائلاً :

كلا يا بني ! لقد كنت أختاره لو أنني خُيرت فيه قبل ميلادي وميلاده ،
أما اليوم فمالى في هذا الشبه من أرب : رضى الله عنه فهو أقرب من آثرت
وأصعب من أبيت .

ثم عاد يقول :

لئن حظى بلذة التعاطى لما حظى بقوة الامتناع ... ولئن سكر بخمر
الدعة لما سكر بخمر الأنفة ، ولئن جرب اتباع الدنيا خطوة واحدة لما جرب
الاعراض عنها خطوات : له طريق ولى طريق ، وربما التقينا في بعض الطريق !

ثم صاح الشيخ بتلميذه ورسول القوم إليه :-
ما بالك يا بني ترضى لى كل صورة إلا الصورة التى رضىتنى من أجلها ؟
قال التلميذ : تعنى يا مولاي صورة أبى العلاء ؟

قال الشيخ : نعم . إياها أعنى ولا أعنى سواها

فعجب التلميذ عجباً لم يدر له منفذاً ولا منصرفاً : أيقضى الشيخ حياته
في التبرم والإنكار ثم لا يختار حين يختار إلا ما تبرم به وأغرق في إنكاره ؟
هذا والله هو العجب العاجب والخيرة جد الخيرة في قضاء الناس مع
الأقدار وقضاء الأقدار مع الناس

وكأنما أدرك الشيخ ما يهيجس به ضمير التلميذ فقال له : تراه عجيباً ؟
أليس كذلك ؟

قال التلميذ لا أكتمك عجبى فأنت به أعلم ، وما أدري كيف شكوت
للدنيا ثم كيف تختار اليوم ما كنت تشكوه ؟

قال : أضرب لك مثلاً ، فانما بالأمثال تنجلي المشكلات والمشابهات
هبك خرجت إلى العالم العريض الرحيب فجعلت لا ترى مزية ولا حسناً
ولا فضيلة في أحد من الناس إلا تمنيت ذلك لنفسك : هبك تمنيت من هذا
عينيه ومن هذا أنفه ومن هذا لونه ومن هذا قوامه ومن هذا فكره ومن هذا
عافيته ومن هذا أرزاقه وأمواله ، ومن هذا ماضيه ، ومن هذا حاضره
ومستقبله ، ومن هذا ملكة الشعر أو ملكة الغناء أو ملكة الحكم أو
ملكة التدبير

وهبك جمعت كله هذا في شخصك فأين تكون أنت بين جميع هذه
الشخوص ؟

لا تجب فاني مغنيك يا بني عن الجواب : إنك يومئذ لا تكون

إنك تكون أنف زيد وعين بكر ولون خالد وسطوة فلان ومال آخرين
ولكنك أنت لن تكون وأنت أنت الذي يعنيك أن تكون جميع هؤلاء ،
وإذا كنت جميع هؤلاء فلا أنت ولا هؤلاء كائنون
قال التلميز : ألا يتسنى لي أن أحتفظ بأساس وجوهر ثم أتمنى النوافل

والعروض ؟

قال الشيخ : ذلك خطأكم القديم . فما من عرض إلا وهو داخل في صميم
الجوهر ، وما من شرفة في أعلى البناء إلا وللاساس منها عماد ، وإن بصرى
الذى فقدته لجزء من تكويني لا أنزعه إلا انتزعت كلى معه فلم يبق لي ما أختار
به ولا ما أختاره . ولقد يكون من عوارض الحياة مال يذهب ومال يجيء ،
ودار تسكنها هنا ودار تسكنها هناك ، ولكنك إذا كسبت المال وفيك طبع
الفقر فكأنما وقع الدرهم في يمين غير يمينك ، وإذا سكنت الدار وخلفت فيها
ذكريات شبابك فأنت ساكنها وإن تحولت منها إلى العدو الأخرى ، وإذا
وجدت مرة فلن توجد إلا على صورة واحدة في هذه المرة ، وكل ما تختاره
بعد ذلك فانما هو من وحى تلك الصورة ، ليس منه محيص ولا محيد

كلا يابني

لن يكون أبو العلاء إلا أبا العلاء !!

بِسَاطِ الرِّيحِ

قال الشيخ : الحمد لله استطعنا وفعلنا . . .

قال الرسول : ان الفضول ذميمة في كل شيء يامولاى إلا في طلب العلم
والسؤال عنه . أفيأذن لى أستاذنا فى سؤال ؟

قال الشيخ : أحسبك تسألنى عما استطعت وفعلت

قال الرسول : نعم . هو ذاك !

فصمت الشيخ قليلا كمن يستحضر نفماً بعيداً أو كلاماً منسياً ثم أنشد :

وماء بلادى كان أنجع مشربا ولو أن ماء السكرخ صهباء جريال

فيا وطنى إن فاتنى بك سابق من الدهر ، فلينع لساك كك البال

فان أستطع فى الحشر آتاك زائراً وهيمات لى يوم القيامة أشغال

هذا الذى استطعناه وفعلناه : عودة إلى الوطن وزيارة للمعرة فى هذا

الحشر الذى حشرتمونا إليه

فأخذت الرسول شيطنة التلاميذ في كل سن وفي كل مقام ، وراح يقول
لأبي العلاء : ومع هذا أنت القائل :

فياليتني هامد لا أقوم . م . إذا نهضوا ينفضون اللهم
فأدار الشيخ رأسه ناحية وزم شفتيه قليلاً ثم أجابه : نعم ! ليتني هامد
لا أقوم . أما وقد قمت فأى مكان أحق بالحنين من .

بلاد بها نيطت على تماثمي وأول أرض مس جلدي ترابها
بل أصبح جسمي من ترابها ، واختلط فوق صعيدها وبين أحشائها ...
هذه هي المعرة ! نعم هذه هي المعرة عرفت ما كدت أعرف غيرها . فالحمد لله
على البعث فيها .

فهجم التلميذ بسؤال جديد ، وعود على الإكثار من السؤال ،
إذ لا محيص من مساءلة الشيخ وإن ضجر بعض الأحيان ... فربما كان ضجر
الإجابة خيراً من ضجر السكوت سنوات ، ريثما يعقد الاحتفال ويجتمع المقبلون
إلى المعرة لتحية حكيمها في ذكرها .

قال التلميذ في سؤاله الجديد : أليس من عجب هذا الحب للمعرة ممن عاف
الدنيا بأسرها ؟

فأجاب الشيخ في غير ضجر ولا تأفف ، كأنه كان يتوقع سؤالاً كهذا
من تلميذه : « ما أكثر عجب الناس مما لا عجب فيه ! إنما يحب الوطن الصغير
من يعاف الوطن الكبير ، ومن كره الدنيا كره الثقل فيها وكره السعى

وراءها في نواحيها . فالى أى منقلب يصير غير المكان الذى لا عناء فيه
يتجشمه ، ولا جديد فيه يفجأه بما يسوءه ، ولا يزال فيه قريباً من عهد صباه
قبل أن يذوق مرارة العيش ويمتحن ببلواه ؟ وما أخرى من اتخذ في المعرة
محبساً لا يفارقه أن يتخذ في الدنيا بأسرها محبساً هو هذه القرية ! لو فعل
غير ذلك لعجبتم منه ، فاعجبوا واخلقوا العجائب فلعلمكم تستروحون الحياة
ببعض ما تعجبون له ، ولعلمكم أطفال القدر يضحك منكم حين تسألون ثم
يضحك منكم حين تقنعون بالجواب ، أو تحسبون أنكم في غنى عن السؤال ؟
يا بنى سل ما بدالك . فقد سألت الغيب كثيراً وسألني الناس كثيراً ، وعالجت
السؤال في الدنيا والآخرة ، فلا أدري ماذا أصنع إن لم أكن سائلاً أو مجيباً
لسائل ، وما أخالك ساكتاً لو دعوتك إلى السكوت ، فتكلم ما ذوناً فأنتم
أزهد الخلق في مباح وأرغبهم في ممنوع ، وقد يريحنى الإذن لك أضعاف
ما يريحنى الأعراض عنك ، فلو صدقتى من قبلك حين قلت لهم إننى أجهل
ما يجهلون لطمعت في تصديقك إياى حين ألوذ بالصمت أو أقر بالغباء ...

واضطرب الرسول لا يدري أهذا ترخيص في السؤال أم نهى عنه ،
وانقباض من الشيخ أم تبسط وانطلاق . وانه كذلك إذ عاد الشيخ يتكلم
كأنما قد سرت في نفسه حرارة الثورة على الناس ، وإنها لحرارة ترضى صاحبها
عمن يثيرها ساعة تسخطه عليه ، كما يعدو الجواد فرعاً فيشعر بنشاط العدو وجفلة

الفرع في آن ، وأبو العلاء ثائر يرضيه الاعراب عن ثورة نفسه ولا يرضيه طول الكتمان لطباعه . فعاد يقول :

« ألا تنبئني يا بني : ماذا تظنون حين تسألون رجلاً متهمًا بالعلم فيعجز عن الجواب أو يأباه ؟ أتحسبون الغيب سلطاناً يجتبي بأسراره الحاشية المقرين ؟ أتحسبون من يصحبه مطلعاً لا محالة على كل أمره فلا يخفى شيئاً إلا اتهمتموه بالضن أو الدهاء والروغان ؟ إن كان هذا ما تحسبون يا بني فالغيب ليس بسلطان ، والعلماء ليسوا بحاشية سلطان ، وأحرى أن يكون العالم كالمدلج في الظلام يحمل مصباحه على قدر ضيائه فهو يرى ما هناك ولكنه لن يرى ما ليس هناك ... فان سأتم فاسألوا عما يجوز علمه أو ما يجوز وجوده حيث يراه المدلج وحيث يقع عليه شعاع المصباح . أما ما وراء ذلك فالعلماء والجهلاء فيه كما قلت لكم قريب من قريب »

فتنفس التلميذ الصعداء ، وعلم أنها غصبة ليست من غضبات الجفاء والنقمة ، وقال وهو يتلثم : لقد علمت ما لم أسأل عنه ، فما أسعدني بقربك أيها الحكيم سائلاً وغير سائل ، وسترى أيها الحكيم أنني لن أسألك إلا عما هو في علمك ولن أطلب منك إلا ما هو عندك . فهل أحسب الشيخ آذناً في هذه الساعة بسؤال أو أعفيه حتى يأذن ويستريح إلى الجواب ؟

فتبسّم أبو العلاء وقد راجع نفسه واسترجع حلمه وأناته ، والتفت إلى تلميذه ملاطفاً وهو يقول له : إن كنت قد تعودت مني مارأيت وفهمت أنني لا أغضب

منك ولا عليك فنحن على وفاق . ولك إذن أن تسأل ولى أن أجيبك أو
أغضب كما غضبت منذ هنيئة ، ولا حرج علينا معا في هذا ولا في ذاك
قال التلميذ : جزاك الله خيراً يا مولاي في غضبك ورضاك ، فما قول
الأستاذ في اقتراح لا يشق عليه أن يجيبه ؟ ما قوله في رحلة بين آفاق الأرض
ثم نعود إلى قريته العزيزة في موعد الوفود ؟

فاعتدل أبو العلاء في مجلسه وهو يقول : أو تدعوني إلى الرحلة وما فرغنا
بعد من الكلام على الوطن والقبوع فيه ؟ إنك لا تضع فرصتك يا بني ،
وإنك لسريع الهجوم .

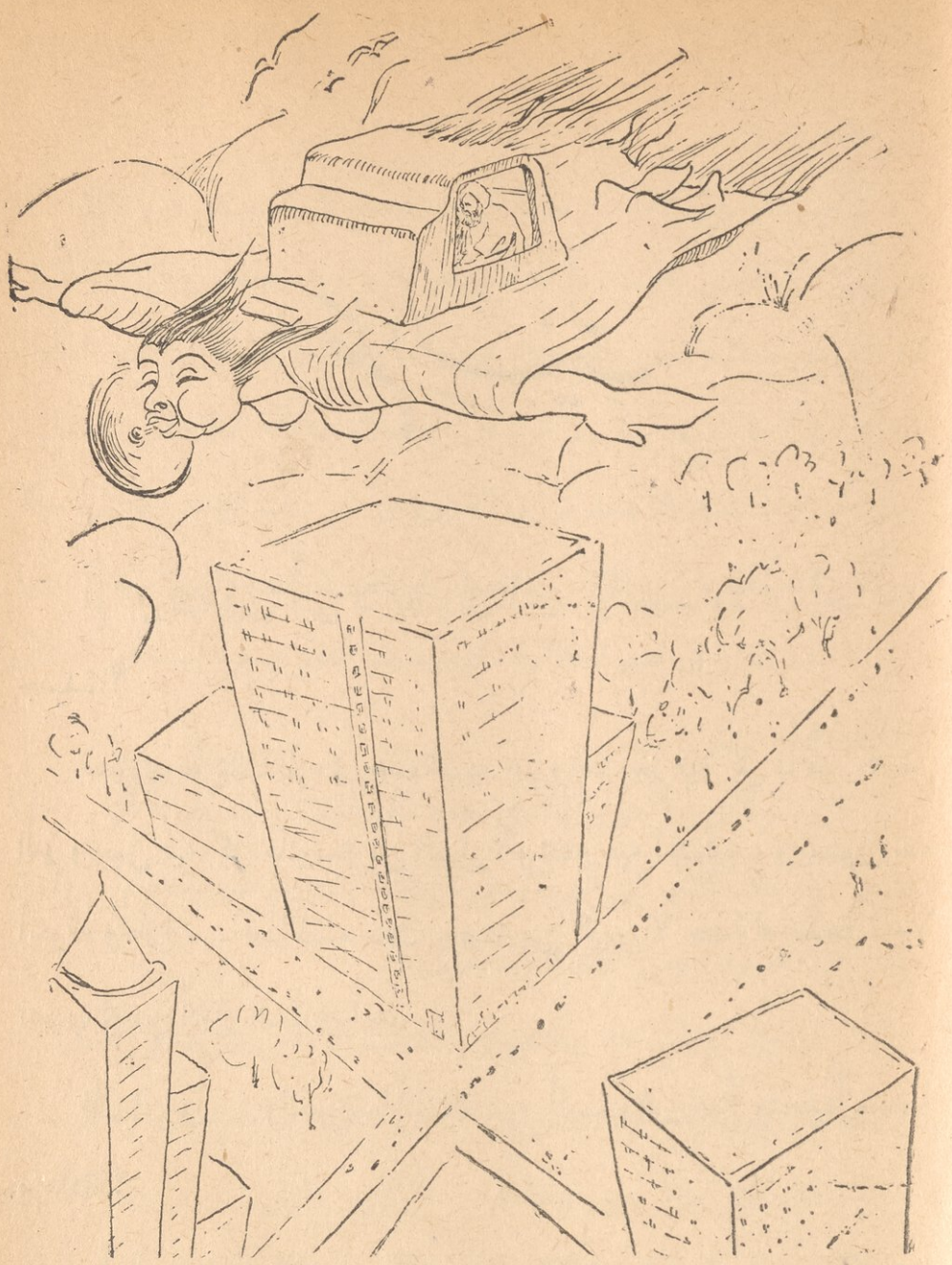
فلم يحجم التلميذ ولم يتردد . بل راح يقول : ان يومك يا مولاي غير
أمسك ، وان المعرة اليوم لعل مسافة ساعات من بغداد ، وان الأرض كلها
لتطوى الآن في أيام معدودات . فلو لم يكن في السفر إلا تجربة هذه العجيبة
المستحدثة في زماننا لكان ذلك شفيعى في اقتراحه وشفيع الشيخ حفظه الله
في قبوله

فطال إنصات الشيخ كالمستريب المتوجس ، وخطر له أن الفتى يغرر به
ولا يصدقه المقال ، ثم سأل في صوت خفيض :

ماذا تقول ؟ المعرة على مسيرة ساعات من بغداد ! والأرض كلها تطوى
في أيام معدودات ! ؟ هل عادت المعجزات وهل رجع بساط الريح ؟ هل
أصدقك والعقل أولى بتصديق ؟

قال التلميذ : ما على الشيخ إلا أن يقبل الساعة وسيصدقني ويصدق
العقل معاً بعد ساعات

قال الشيخ : قبلت ، فأين بساط الريح ؟ وأين سليمان بن داود ؟
ثم مضى التلميذ يشرح للشيخ ما يريد ، والشيخ مقبل عليه ظاهر
العجب من كلامه ، حتى فرغ من شرحه وهما على اتفاق أن يجوبا بقاع الأرض
في مشرقها ومغربها ، وأن يشهدا الأجيال التي لم يشهدا أبو العلاء ولم يسمع
بخبيرها ، وأن يتعلم كلاهما من صاحبه ما عنده من علم ، ويتخذة دليلاً له فيما
تجهل ، فلا حرج من سؤال ولا حرج من جواب
وسنسمع ، بعد ، ما قال أبو العلاء وما قيل له في كل مكان وصلاً إليه



« أبو العلاء في الطائرة أو على بساط الريح ؟ »

حكم السيف

ألم أقل لك يا بني أني لا أملك أن أرى رأياً جديداً ولا أن أحيا حياة جديدة؟

قصارى ما يملك المرء في هذه الدنيا عمر واحد يعلم فيه كل ما قُدر له من العلم ويعمل فيه كل ما وسعه من العمل؟ ويختبر فيه اختباره، ويستوفي منه أحواله وأطواره. فاذا قضاها فتلك حصته من الزمن لا حصه له بعدها، ولا نصيب له من أعمار الدنيا وراءها

قال الرسول: والشهرة يا أستاذنا، أليست هي عمراً متجدداً وحصّة مزدادة؟

قال أبو العلاء: كلا يا بني الشهرة استطالة لعمر الشهير: فيها تكرار له وليس فيها تجديد لشيء منه... ختمت حصتي من الوقت فلا تنتظر مني قولاً

غير ما قلتُ ، أو رأياً غير ما رأيتُ ، ولو أطلعتني كل يوم من دنياك هذه على جديد

فأحس الرسول شيئاً من خيبة الرجاء ... أو لا يسمع من أبي العلاء كلمة فيها معنى من المعاني غير ما سطرته الأوراق وفرغ منه الحافظون والشرّاح ؟؟ لقد كان يحسب أنه ظافر بأبي علاء جديد ، أو بطبعة منقحة من أبي العلاء القديم ، فإذا به يسمع مرة بعد مرة أن أبا العلاء هو أبو العلاء ؛ وأن حجاب الزمن قد هبط بعده فلا منفذ من ورائه إلى علم غير ذلك العلم ، ولا إلى حكمة غير تلك الحكمة . وأوشك أن يقتضب الرحلة لولا أنه استدرك وتدبر ، فعلم أن مشاهدة الدنيا في صورة علائية أمر يستحق النظر ومعرفة تستحق العرفان فانطلق يقول :

إذن يامولاي أنا أعلم رأيك في هذه الحكومات العسكرية التي تركنا بلادها ، أو هذه الأمم التي يجرّون على وتيرة لا يشدّون عنها ونظام لا يهاودون فيه ، أنت تحمدها بعض الحمد لأنك تقول :

واخش الملوك وَيَاسِرْهَا بطاعتها فالملك للأرض مثل الماطر الساني^(١)
 إن يظلموا فلهم نفع يعاش به وكم حموك برجل أو بفرسان
 وهل خلت قبل من جور ومظلمة أرباب فارس أو أرباب غسان
 وهذه الحكومات المجنّدة تحمي من الفوضى ولها نفع يعاش به في أزمان

(١) سنا السحاب الأرض : سقاها

الانقلاب ، وهى تزعم ألا حرية للناس فى قديم من الزمن أو حديث ، ففى كل
حكومة جور ومظلمة . والحكم هكذا يكون ، أو لا فهو فتنة وظلم مكنون
فأصغى أبو العلاء طويلا . ثم قال : ولكنى كما قلت هذا قلت كذاك :

ومن شر البرية رب مثلك يريد رعية أن يسجدوا له !

وهؤلاء الخاكمون يقولون انهم معصومون وانهم لا يحاسبون ، وأنهم
أرباب يدان لها بطاعة الساجدين الراكعين . فما أحق هذا وما أحرأه ألا
يكون بين أناس يعقلون :

قال الرسول :

الحق ما تقول مولاي ، لولا أن الرعية تحب هؤلاء الخاكمين ولا تطيعهم
إلا وهى راضية بما تطيع

فلم يزد أبو العلاء على أن عاد بيته القديم :

تلوا باطلا وجلوا صارما وقالوا صدقنا . فقلنا نعم

ثم سكوت وأطال السكوت

فعاد تلميذه يحاوره وكأنه ذو هوى فى تعظيم مذاهب الحكم عند هؤلاء

العسكريين ، وقال فيما قال :

إن هؤلاء القوم لا يخضعون على كره منهم ، ولكنهم يخضعون لأنهم

يؤمنون إيمان الخاكمين ويفكرون تفكيرهم ويريدون مرادهم ويفرحون

بعظمتهم كأنها عظمة لهم فيها نصيب ، وكأنهم شركاء في السيادة حين يخضعون
لأولئك السادة

قال أبو العلاء :

وما أعجبتني لابن آدم شيمة على كل حال من مسود وسائد
ذلك أدهى وأمرّ ، وليتهم فكروا وخالفوا وخضعوا مرغمين ، فذلك
أكرم لعقل الإنسان وأدنى إلى الرجاء في الخلاص ، أما أن يسلب الإنسان
الفكر حتى لا يفكر إلا بأمر حاكميه وعلى وفاق الهوى من رؤسائه ، فذاك
آلة من الآلات وحيوان من العجماوات ، وليس بأدمى له عقل ، والعقل إمام
للأدميين أولى بالاتباع من كل إمام

قال أبو العلاء ذلك وزوى وجهه كأنه قطع القول وحسم الجدل ، وقال
مالا رجعة فيه ولا مزيد عليه

إلا أن التلميذ قد طاب له أن يسترسل في النقاش والسؤال فانشى يقول :
أولا تغتفر الطاعة من الرعية حتى لو أفلح الرعاة في سياسة الأمور وشاهد
الناس فلاحهم آتة بعد أخرى ، فعلموا أنهم راشدون وأنهم لا يخطئون ، وإن
خطأهم آمن في عقباه من خطأ الكثيرين ؟

فسأل أبو العلاء : من القائل :

يسوسون الأمور بغير عقل وينفذ أمرهم فيقال ساسة !

فأجاب التلميذ : كيف ؟ انك أنت قائل هذا يامولاي !

قال أبو العلاء : ذلك فحوى كل جواب على كل سؤال من قبيل
 ما سألت . . . فلا تنظر يا بني إلى فلاح هؤلاء الساسة حين ينفذ أمرهم
 ويستقر سلطانهم وتمضى مشيئتهم . بل انظر إليهم حين يفشلون وحين
 يريدون فلا يقدر . . . انظر إليهم يومئذ تعلم أنهم يخطئون كما يخطيء
 سائر الناس وأكثر مما يخطيء سائر الناس ، بل تعلم أن الناس يرون لهم
 من الخطأ يومئذ أكثر مما صنعوه وأكثر مما يستطيعونه أو استطاعوه .
 ولا تنس أبداً قول الحكيم القديم

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم الخطيء الهبل
 واذكري يا بني أن هؤلاء الجيوش المجندين يتعلمون الجبن حين يتعلمون
 ما تحسبه شجاعة . . . وان أشجعهم لن يجرؤ على كلمة يغضب بها سيده وصاحب
 أمره . وما بقى بعد ذلك من اقدام على القتال أو الشجار ، فهو اقدام اضطرار ،
 أو اقدام مخمور بحميا الضجيج والفخار .

وما أبرئ نفسي يا بني . لقد عرفت هذا الجبن وقلت فيه :
 لجأت إلى السكوت من التلاحي كما لجأ الجبان إلى الفرار
 ويجمع منى الشفتين صمتي وأجمل في الحافل بافتراي
 هؤلاء كلهم يا بني فارون من المنطق والكلام ، جنباء يهربون من
 الميدان إلى السميت الذي تدعوه طاعة أو تدعوه شجاعة ، وما هو من الطاعة
 والشجاعة إلا كالرجل وصورته في المرآة .

قال التلميذ : واجمال ذلك كله في كلمة واحدة يا مولاي
قال أبو العلاء : اجمال ذلك كله يا بني في بيت واحد ، وهو :
ساس الأنام شياطين مسلطة في كل أرض من الوالين شيطان
وانفض بذلك الجدال بين الشيخ وتلميذه ، وهما قافلان من بلاد
الحاكمين العسكريين .

المستشرقون

هؤلاء الذين استغربت أمرهم يا مولاي ، هم من سميناهم نحن
بالمستشرقين ! وهم أناس لم يسمع بهم الأستاذ لأنهم نشأوا أول نشأتهم في
عصره ، فكان أقدمهم يتعلم العربية والحكمة على عرب المغرب يوم كان
الأستاذ يملئ دروسه القيمة في المعرفة قبل عشرة قرون ، وكانوا قسيسين
ورهبانا يدرسون علوم العرب ليفقهوا أسرار القرآن ويستعدوا لها بالحجة
والبرهان ، ثم شاع أمرهم حيث شاع أمر الدولة المسيحية وأمر الخلاف على
الأنجيل بين حبرها الأعظم ومن خرجوا عليه واعتزلوه . فمن ثم كثرت
طوائفهم في بلاد الجرمان ولا يزالون أكثر ما يكونون بين هؤلاء القوم ، ولا
سيما وهم قوم مشغوفون باللغات والبحث في الأصول واللهجات . فهذا علة
ما استغربه الأستاذ من شيوع الاستعراب هنا حيث نحن الآن مقيمون ،
وأنهم من أجل هذا يحومون حول هذا الورد ويغتنمون هذه السانحة ، ولا

يريدون أن يعبر بهم حكيم المعرفة دون أن يوسعوه حفاوة وسؤالا ويتخذوا من كلامه بيانا يعتصمون به ودعاية يدعون إليها . فإن شاء الأستاذ أن يصابرهم ويستقصى خبرهم فله الرأي الأعلى فيما يشاء . . . »

ذلك كان حديث التلميذ لأستاذه بعد رحلة ليست بالقصيرة قضياها في بلاد الجرمان ، ولقيا فيها فئات من المستشرقين سمعوا برهن المحسنيين فزاروه واستزاروه ، وسألوه وأجابوه ، وعجب أبو العلاء من شأنهم في بلاد الغرب فسأل تلميذه عنهم على سبيل الاستطلاع أو على سبيل القصاص ، لكثرة ما أطلال عليه من سؤال ، وكثرة ما التمس عنده من فائدة ، وكثرة ما كلفه من تجوال

فلما أنبأه التلميذ نبأهم قال أبو العلاء :

استعجم العرب في الموامى بعدك واستعرب النبيط
ثم قال :

أين امرؤ القيس والعذارى إذ مال من تحته الغبيط
وجعل يردد : أين ؟ أين ؟

ثم عاد يقول : هيهات ! هيهات !

هذه فئة عهدنا لها أشباها بين رهبان زماننا ، يدرسون العلم دراسة رهبان ولا يزالون رهبانا في كل ما يدرسون . فهم يحجون إلى العلم من طريق الدين ، وقلما يعرفون العربية إلا بلسان أعجم ونفوس أشد عجمة ، وأقربهم

إلى البصر بها من كان للعلم قصده وكانت له في لغة قومه قدم ، وهم جامعون ومحيطون ، دأبهم كدأب كل محيط يقف عند الأطراف ولا ينفذ منها إلى القلب ، ولهم على ذلك ما استحقوا من جزاء ، وثناء

ثم قال : ومن هؤلاء الذين تسألني أو تأمرني أن ألقاهم الساعة ؟ قال التلميذ : أستغفر الله يا مولاي ، فالأمر والرأي لك ، وإنما هو اقتراح أو رجاء ، وأنت وما ترضاه من قبول أو إباء :

هؤلاء الصحفيون يسألون وقد عرفت طريقتهم في السؤال ، فإن أذنت لقيتهم جميعاً مرة واحدة وأفضيت لهم بخبر ما هم مستخبرون ، فلا نجاة منهم قبل أن نرحل من هذه الديار

فاستسلم أبو العلاء وأوماً قائلاً : على بهم مجتمعين ! فما أتمها حتى كان واحد منهم على الباب ، وكان يتلو خطاباً قد استظهره وتصنع لإلقاءه ، وجاء منه بعد كلام طويل :

« إننا نستقبل منك في بلاد الجرمان رجلاً من أهل الشمال وإن كان مولده في الجنوب ، وغفلاً من عقول الآريين وإن كان منسوباً إلى الساميين ، وشاهداً جديداً على صدق علم الأجناس الذي كشف لنا حقيقة النبوغ ودخيلة المزاياء والأخلاق بين الشعوب . فلا فضل ولا عبقرية ولا ارتقاء في الآداب والفنون ، ولا في العقائد والأخلاق إلا أن يكون مردهاً جميعاً إلى أبناء الشمال ، وإن خفيت مصادر التسبب واختلفت مواقع الميلاد

ولولم تكن أيها الرجل العظيم من سلالة الآريين لما اتصل الروح
بينك وبين الهند فرأيت ما رآه البوذيون وحرمت ما يحرمون ، وأبحت ما
يبيحون ، فأنت الناهي عن أكل الحيوان وجناه حيث تقول :

تق الله حتى في جنى النحل شرته فما جمعت إلا لأنفسها النحل

وأنت الناصح باحراق الموتى وإن عجبت منه حيث تقول :

فاعجب لتحريق أهل الهندميتهم وذلك أروح من طول التباريح

إن حرقوه فما يخشون من ضبع تسرى إليه ولا خفي^(١) وتطريح

والنار أطيب من كافور ميتنا غبا وأذهب للنكراء والريح

وأنت المنكر كل ما ذهب إليه البشر إلا مذهب الهند حيث تقول :

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر

وقول النصرى اله يضا م وَيظلم حياً ولا ينتصر

وقول اليهود إله يحب رشاش الدماء وريح القتر^(٢)

وقوم أتوا من أقاصى البلا د لرمي الجمار ولثم الحجر

فوا عجباً من مقالاتهم أيعمى عن الحق كل البشر؟!

ولاح على الرجل أنه منطلق في تحيته إلى غير نهاية ... فلم يمهله أبو العلاء

حتى يأتي على شواهد وأمثاله ويستطرد إلى نتائج وغاياته . ومال إلى تلميذه

(١) خفي الشيء أظهره وهو هنا يعني النباش

(٢) رائحة العظم المحروق

ورسوله يقول وكأنه يسارّه : أين يذهب عن هذا الثرثرة قولى « وغسل
الوجوه ببول البقر » ؟ أليس لأهل الهند فيه نصيب ؟ ثم قاطع الصحفي
الخطيب سائلا :

ماذا تعنى بساميين وآريين وأهل شمال وأهل جنوب ؟

فأسرع التلميذ يجيبه قبل إجابة الصحفي : « : أنهم يامولاي يعتقدون
اليوم فى بلاد الجرمان أن البشر جنسان : جنس مخلوق للسيادة والحكم ،
وجنس مخلوق للطاعة والتسخير ، وإن أهل السيادة منبتهم فى الشمال ثم
انحدروا منه إلى الهند ، فهم المعروفون بالهنديين الآريين ، وأن أهل الطاعة
والتسخير منبتهم فى الجنوب فهم الساميون أبناء سام أو الحاميون أبناء حام ،
ومن شا كلهم فى السحنة والسواد ، وأنه ما من نابغ عظيم إلا وهو مردود
إلى أهل الشمال فى معدنه وعنصره القريب ، وإن ظهر بين أبناء الجنوب .
ولعل شبهتهم فى انتمائك إلى الشماليين يامولاي : إنك مولود على مدرجة
الصقالبة والروم »

فانتفض أبو العلاء انتفاضة العربى المسبوب فى نسبه وصاح بالتلميذ :
ويح الرجل ! ماذا عساه أن يريد منى بعد هذا التخليط ؟ قل له إن كان لا
يسمع منى . . . قل له أنا القائل :

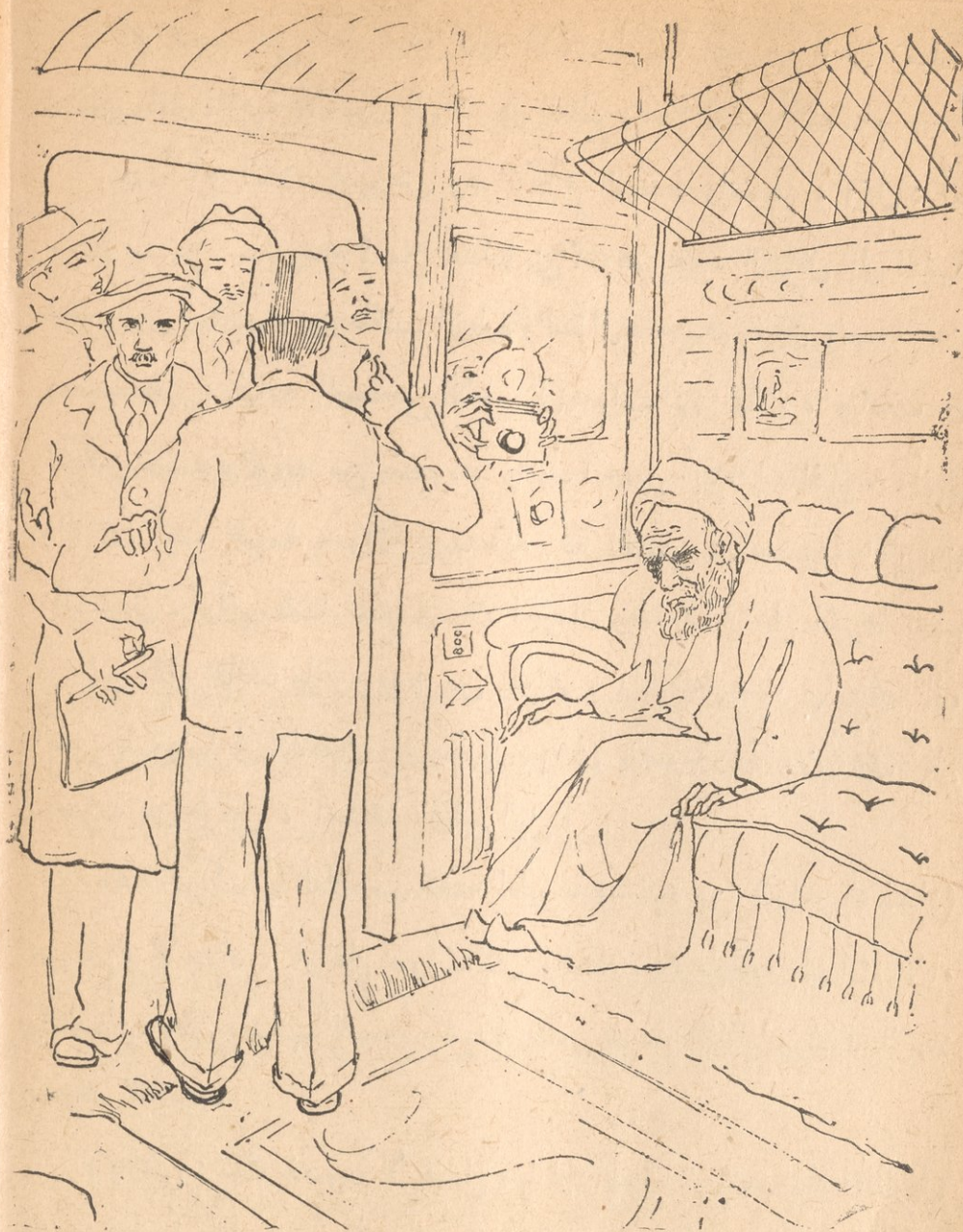
لا يفخرن الهاشمى على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ما على عنده إلا كقنبر

وذلك حسبه من جواب

ثم هجم صحفي آخر يبدو عليه الاغتياب بما سمع من زجر زميله ،
وأقبل يقول : تحية الاخوان إلى العربي العظيم : أنا ابن من أبناء سام
فهم أبو العلاء بالنهوض وهو يكاتم السخط والضجر ، وقال : أما
فرغنا بعد من سام وحام ؟ من هذا يا بني ؟ وهو يوجه السؤال إلى التلميذ
الحائر بين أستاذه وبين طلاب الزيارة والسؤال ، من صحفيين ومستشرقين
ومستطلعين ، فيادر الصحفي الآخر إلى جواب أبي العلاء ، وتلطف في
تسكين غضبه والترفيه من ضجره ، وأنبأه أنه من أبناء إسرائيل ، وأنهم
والعرب أبناء عمومة ، وأنه يريد منه كلمة الفصل في خصومة الآريين
والساميين ، وأنها قلما تنفع في بلاد الجرمان وقلما يجسر على نشرها بينهم
أو نشر كلام يخالف ما يروجونه من أقوالهم ، ولكنه يبعث بها خفية إلى
أناس يذيعونها في الخافقين ، ويعتزون بها في خصومة الجنسيتين ، وفي كل
خصومة بين طرفين ، أحدهما آل إسرائيل !

وهنا أدركت أبا العلاء فكاهته المطبوعة وسخره من (تراحم الأضداد)
على قديم الأجداد ، أو على ميراث المال والعتاد ، وهم يلهجون بميراث الآباء
والأولاد ، وقال وقد تهياً للمسير وتلميذه يعتذر بموعد القطار ووشك الرحلة
وخوف التأخير :

(يا أخي : تلك خصومة لا يفصل فيها غير الله ! أنتم شعب الله المختار في
القديم ، والجرمان شعب الله المختار في الحديث ، فاسألوه ولا تسألوني أيكما
صاحب الخطوة الآن ؟)



« الصحفيون يلاحقون أبا العلاء »

مع المشيعين

هبطت السكينة على نفس أبي العلاء

وقيل له إنك في أمان، ليس لأحد عليك من سلطان، وإنك ممن قيل فيهم
« لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ... خرجت من العالم الفاني فلا تمتد إليك
يد ولا ينالك أحد من الناس بعدوان . فقل ما بدا لك من رأى ، ولا تطل
همسك ان نطقت بالحق ولا ترفع رأسك إن نطقت بالحال . أنت اليوم غيرك
بالأمس : أنت اليوم من الخالدين !

وإنما قيل له ذلك لأنه صارح بعض الجرمان وهو في بلادهم بمذهبه في
اختلاف الأجناس وتفاوت الأقوام ، فشجبهوه وهموا أن يبطشوا به على تخوم
بلادهم ، لولا أن ردتهم عنه هذه الحصانة التي لا حصانة مثلها للمجالس النيابية
واللهيئات الوزارية ... وهى حصانة الخلود

لهذا كان مسلكه مع جماعة المشيعين أو الشيوعيين حين نزل بأرضهم

غير مسلكه المعهود من التقية والمداراة والصمت والفرار ، فقال ما أراد أن يقول ، ولم يعبا منهم بزجرة ولا صخب ولا وعيد

وقف رفيق من رفقائهم يخطب في حقل جمعوه للترحيب بأبي العلاء ، أو للشيوعى العربى القديم كما أسموه ، فقال بعد اسهاب وترديد

« هذا أيها الرفاق رجل منا قد سبقنا بكل رأى من آرائنا وكل دعوة من دعواتنا : فنحن ننكر التفاوت فى قسمة الأرزاق وهو ينكره فى كل صورة من صورته ، وكل منحى من مناحيه ، فيقول عن التفاوت بين العاملين وأصحاب الأموال :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتته فقير معرى أو أمير مدوّج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج
ويقول عن التفاوت بين الشاب الفقير وهو أولى بالمال وبين الشيخ
الموسر وهو مدبر عن الحياة :

يعيش الفتى فى عدمه عيش راغب ويثرى مسن للمعيشة سأم
ونحن ندعو إلى التآزر الاجتماعى والتكافل بين العاملين فى الأمة ، وهو
قد نادى بذلك من قبل فقال :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدم

ونادى بخدمة الحاكمين للرعية فقال :

إذا ما تبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

وقال :

مُلّ المقام فكم أعاشراًمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا مصالحها ، وهم أجراؤها
واستطرد إلى أبعد من هذا في التكافل بين أعضاء المجتمع الإنساني فقال :
وكل عضو لأمرٍ ما يمارسه لامشى للكف ، بل تمشى بك القدم
بل استطرد إلى أبعد من هذا في المساواة فقال :

ان شقاً يلوح في باطن الثرة قسم بيني وبين الضعيف
ولقد بينا نحن للناس أن الآداب والعقائد إنما هي مصالح الطبقة الحاكمة
تضوعها على هواها لتدعم سلطانها والغلبة على من دونها ، وهذا الحكيم العربي
قد بين ذلك حق بيانه حين قال :

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجلب الدنيا إلى الروساء
وحين قال في اظهار سطوة المال وقدرته على تحويل الآداب وتحويل
الحقوق :

المال يسكت عن حق ويُنطق في بطل ، وتُجمع إكراماً له الشيع
وجزية القوم صدت عنهم ، فعدت مساجد القوم مقروناً بها البيع
ونحن بشرنا بدين العقل ، وهو مبشر به في قوله :

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً وأخرج منها ما أُمى شوى عقلى
ومثل ذلك قوله وهو يسير من كثير :

كذب الظن لا إمام سوى العقل مقيما في صبحه والمساء
بل نحن قررنا تفسير التاريخ « تفسيراً مادياً » كما سميناه وهو قد أشار
إلى ذلك فقال :

الناس للأرض أتباع إذا بخلت ضنوا وإن هي جادت مرة جادوا
وألمع إلى ذلك مرة أخرى في هذا البيت على سبيل الرواية :
قالوا البرية فوضى لا حساب لها وإنما هي مثل النبت والشجر
وزاده توضيحاً وتقريراً حيث قال :

لم تجذبوا لقبيح من فعالكم ولم يجئكم لحسن التوبة المطر
ولا أبلغ إذا قلت أنه ذكر الاشتراكية بلفظها في اللغة العربية بيت من
أبياته العامة يقول فيه :

لو كان لى أو لغيرى قدر أمله من البسيطة خلت الأمر مشتركا
وأنه قد أحمى على طبقات الفضولين المتطفلين على المجتمع الإنسانى بغير
عمل ينفعونه به حيث قال :

ويعجبني دأب الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحاح
وأطيب منهم مطعماً في حياته سعاة حلال بين غاد ورائح
فهو يأنف من التطفل الاجتماعى أيا كان المتطفلون ولا يبيح القوت إلا
لمن يكسبونه ويستحقونه ، وهو قد فرق فى قصائده ما اجتمع من مبادئ
المذهب الاشتراكى فى كتب الأساطين ومباحث الدعاة العالميين ، وتلك مرتبة

ترفعه على أبناء عصره درجات ، وتجعله من أئمة الفكر في تاريخ الإصلاح بين الأقدمين والحديثين

ثم اقترح الخطيب على سامعيه أن يقفوا جميعاً ليشربوا نخب الشاعر الذي جمع من مبادئهم في منظوماته ومنشوراته ما لم يجتمع قط في كلام أحد من الشعراء .

فنهضوا جميعاً وشربوا أقداحهم وقوفاً ، ثم جلسوا يترقبون وقفة الشيخ بينهم ليحيب على التحية والتكريم ويحجب على بحث الخطيب بجديد من مقاله أو قديم ، والشيخ لا يعلم أنه مطالب بالوقوف أو مطالب بالتعقيب ، حتى نبهه الرسول الذي يصاحبه في كل مكان إلى ما يترقبه القوم ، ثم أخذ بيده إلى المنصة فنزل الصمت على الحاضرين ، وانقضت هنيئة لم يسمع بعدها إلا شيخ المعزة وهو يقول بصوت رفيق ولكنه ليس بالضعيف :

(... أتم مشكورون على جميل ثنائكم واحتفائكم بهذا العاجز المائل بين أيديكم . لكنه حائر في موقفه هذا لا يدري ما تبغونه بمذهب الاشتراكيين أو بمذهب التفسير المادى للتاريخ ، فأما قوله :

لو كان لى أو لغيرى قدر أئمة من البسيطة خلت الأمر مشتركاً
فإنما يعنى به التوحيد الإلهى ويريد به أن الناس أغنياءهم وفقراءهم على حد سواء لا يملكون فى جانب الله أرضاً ولا يستعبدون أحداً ، وهو من قوله :
ويقول دارى من يقول وأعبدى مه فالعبيد لربها والدار

أوهو من قوله :

ما في بني آدم غنى فكلهم مقتر عديم

يعنى الذى ماله فناء وذلك الواحد القديم

أوهو من قوله :

فقير كل من فى الأر ض . أن العبد لا يملك

أوهو من قوله :

إله الأنام ورب الغم — م لنا الفقر دونك والمملك لك

فما أدرى من أين تسربت « الاشتراكية » إلى معناه كما تصفونها فيما

سمعت من خطب وقرأت من بحوث وشروح

ما أردت إلا الرفق بالناس ، بل ما أردت إلا الرفق بجميع الأحياء ...

فكنت أوصى السيد أن يرفق بعبد . وأقول له :

إذا كسر العبد الاناء فعده أذاة له . أن الاناء إلى كسر

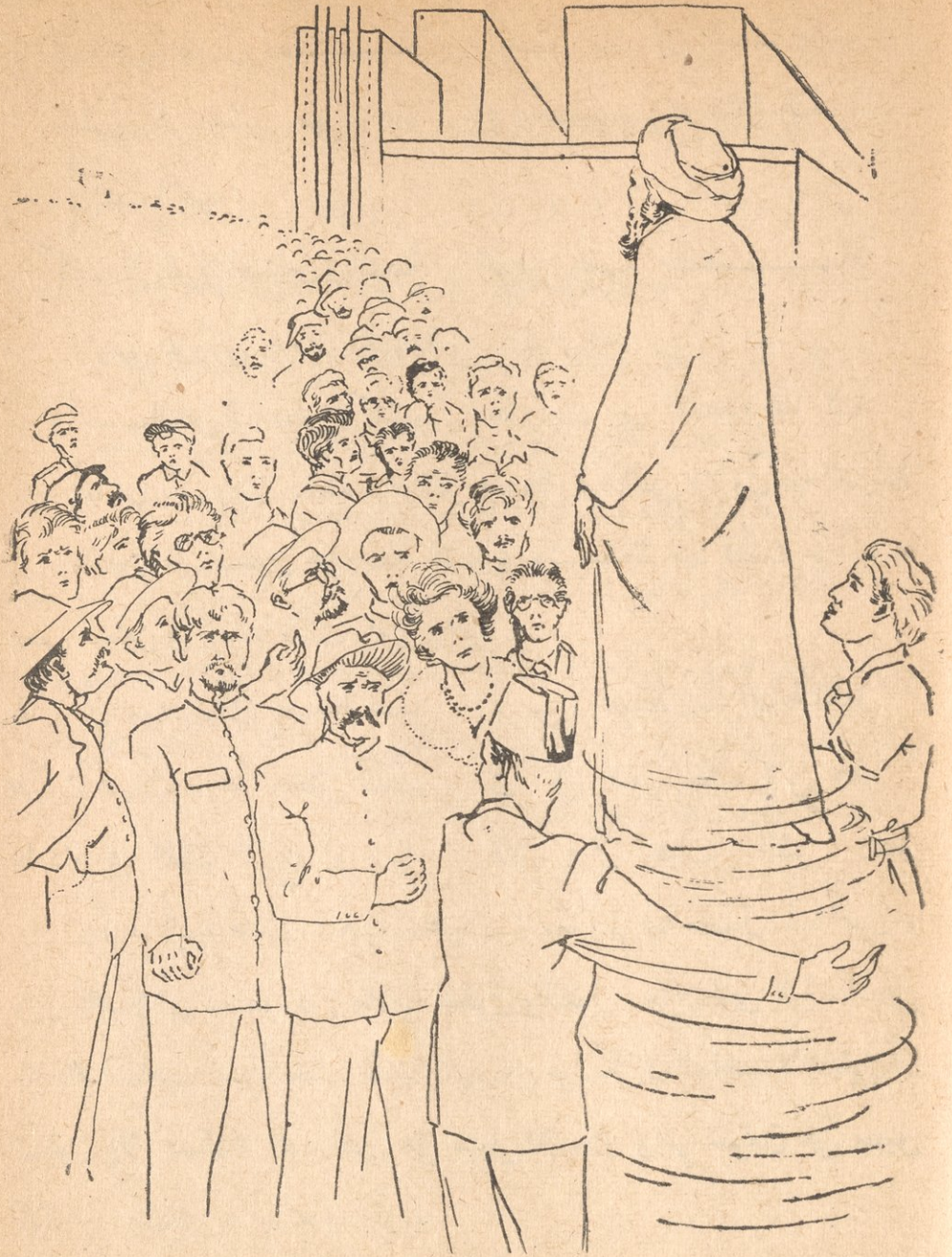
وكنت أوصى العبد والفقير أن يرفقا بالهيمة الخرساء . ويرينى منهما

ما قلت أنه يرينى .

لقد رابى مغدى الفقير بجهله على العير ضرباً . ساء ما يتقلد

الرفق الرفق . والرحمة والرحمة . ذلك ما أردت وذلك ما دعوت إليه .

وما دار فى خلدى يومئذ إلا الزكاة يؤديها أهل السعة للمضيقين



« أبو العلاء يثير الشيوعيين عليه »

إذا وهب الله لي نعمة أفدت المساكين مما وهب
 جعلت لهم عشر سقي الغما م وأعطيتهم ربع عشر الذهب
 وكنت أعجب :

كيف لا يشرك المضيقين في النعمة قوم عليهم النعماء
 وأوصى بما وصى به دين الحنيفية :

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بني الاعدام شاكينا
 أما أن يأتي زمان ينقطع فيه الفقر ويبطل فيه الغنى وتؤول فيه السيادة
 إلى العاملين المستضعفين على سنة التساوى وشرعة المزاملة فذلك ما أنبأ به
 بعض النبيئين في زماننا فقلت راوياً ومجيباً :

يقال أن سوف يأتي بعدنا عصر يُرضى ، فتضبط أسد الغابة الخطم^(١)
 هيات هيات . هذا منطق كذب في كل صقر زمان كائن قطم^(٢)
 ما دام في الفلك المريح أو زحل فلا يزال عباب الشر يلتطم
 وأقولها اليوم مرات : هيات هيات ! وما أتم فيه مصدق لما أقول ،
 وإن أعجبكم أن تسمعوا مني خلاف العقول والمنقول . وأين لومي الرؤساء على
 اتخاذهم المذاهب أسباباً لجلب الدنيا إليهم من قولكم إن المذاهب لا ينبغي أن
 تكون إلا كذاك ؟ إنما أقول على سبيل الإنكار وأتم تقولون على سبيل
 الإقرار ، وشتان ما أردتم وما أريد

(١) جمع خطام وهو ما يوضع في أنف البعير ليقاد به

(٢) القطم : اشتهاة اللحم

بل ما لكم لا تدعون أني ناديت بمذهب الفوضى حين قلت :
 إن أكلتم فضلا وأنفقتم فضة لا فلا يدخلنَّ والٍ عليكم
 لا تولوا أموركم أيدي الناس إذا رُدَّت الأمور إليكم
 وما ناديت بالفوضى ولكني أردت اتقاء الوالين بالعفة والزهادة
 قال المعري ذلك وكأنما كان متجليا عليه في تلك الساعة قوله :
 إن عذب المين بأفواهكم فإن صدقي بغمي أعذب
 ولم يكن متجليا عليه قوله إنه يفر بالصمت من المحال .

أما ما حدث من أثر هذا الجواب في نفوس السامعين من معاشر
 الشيوعيين فغنى عن السرد والافاضة ، وحسبك منه صيحة الرسول في أذن
 الحكيم : كفى كفى أيها الأستاذ الرحيم . ! فانك إن كنت على نجوة في
 حصانة الخلود ، فما أنا بين القوم من الناجين !

في بلاد الشمال

خرج المعري وتلميذه من أرض الشيوعيين وهما يلعبان الديار والديارين،
وأصبح التلميذ ولا هم له بعد إفلاته من براثن القوم إلا الوصاة بالتقية
والمحاذرة، قائلاً ومعيداً ما قال: مولانا الشيخ! إنك في حرز من ضم
الأقوياء، وأمان من سطوة أبناء الفناء. أما تلميذك ومريدك فلا حرز له
منهم ولا قوة له معهم، ولا أمان أن يبطشوا به بطشة واحدة، فإذا أنت
يامولاي قد فقدته في منتصف الطريق. وكان الشيخ يداعبه فيظهر الإصرار
على المناقشة والمناوشة ويردد ما أنشد في سابق أيامه بدار الفناء:

ان عذب المين بأفواههم فان صدق بغمي أعذب

قائلاً: يا بني! ما أنا بصاحب الرحلة بل أنت... فاصبر على بلائك
واحتمل عاقبة رأيك. فينتفض التلميذ خوفاً وحيرة ويعيد الوصاة والرجاء،
مناشداً مولاه الرحمة التي أرادها لبني الإنسان وبني الحيوان

فلما أطل التلميذ في وصاته قال الشيخ : ما بالك يا هذا تخاف وتوصي وتلحف في الوصاة ؟ أهلك ذاهب بنا إلى معشر من الناس كأولئك الذين كنا بينهم ؟ إن كان ذاك فعد بنا إلى المعرة واختصر بنا مسافة هذه السباحة ، فلا طاقة لي بسخافة قوم آخرين كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الشيوعيين ، ولا بسخافة قوم كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الطغاة العسكريين

قال التلميذ : كلا يا مولاي الجليل . ما إلى هذه البلاد وأمثالها نرحل ، وإنما أخاف ما ليس في الحسبان ... إنما رحلتنا بعد اليوم إلى أقوام لا يحجرون على المقال حجر أولئك الأقوام ، ولا يقسرون الناس على رأى واحد وضمير واحد ، ولكنهم يقولون ما يشاءون ويفكرون كما يشاءون ، فإن خامرني الخوف ونحن مقبلون عليهم فذلك يا مولاي خوف الجبل بعد خوف الثعبان .

وطالت الرحلة في تلك البلاد بلاد الشمال ، وتقلب المعرى وتلميذه بين أهل النزويج وأهل السويد وسائر تلك الأنحاء ، فحمدا كثيرا من الأحوال ، وشهدا أنماطا من الحكم والعلم لم يشهداها في البلدان الغربية كافة ، فطاب السرى وطاب المقام .

ونزلا آخر المطاف ببلاد الدانيين أو الدنمركيين ، فهما الآن في مدرسة جامعة دعى إليها حكيم المعرة بأمر من ملك البلاد ووزرائها ، على عادة القوم في اغتنام كل فائدة وتسجيل كل شاردة وواردة ، ليسألوا الشيخ

ويستطلعوا طلعه ، ويساجلوه القول ويظفروا بما شاء من جواب
قال طالب علم : أياذن الشيخ في سؤال عن حكومة ذلك المعشر الذين
كان بينهم قبل أن يرحل إلى أقطار الشمال ، وأعني بهم معشر الشيوعيين ؟
قال الشيخ : تلك حكومة كلها ظواهر تخفى ما دونها من البواطن ،
كاتبها يفعل فيها ما يريد ، ولو جرى أمرها على القول الصراح لما كان لهذا
الكاتب من صولجان ، إلا القلم والقرطاس
فعاد الطالب يسأل : أو ليس الأمر بين ذلك الكاتب وزملائه على سنة
الشورى والمساواة ؟

فامتعض الشيخ وأدرك الطالب بالجواب قبل أن يسترسل في السؤال :
مه يا بنى مه ! أى شورى وأية مساواة ؟ لقد سمعنا بعضهم يلوم من يخاطب
ذلك الكاتب بكاف الخطاب كما يخاطب سائر الناس ! أعندك يا صاحبي
قصيدة شاعر القازاق الذى أنشده مديحه ونحن هناك ؟ قال الشيخ هذا
والتفت إلى التلميذ الرسول ، فوقف التلميذ الرسول ماثلا على المنصة وقال :
نعم يامولاي !!

ثم مضى ينشد قصيداً يقول فيه ناظمه :

« هل أشبهك بالأنبياء ؟ كلا فبعض الأنبياء يكذبون

« هل أشبهك بالبحر المحيط ؟ كلا ! ففي البحر المحيط صخور يتصدع

عليها السفين

« هل أشبهك بالجبال ؟ كلا ! فما من جبل إلا وقته في مرأى العيون

« هل أشبهك بالقمر ؟ كلا ! فالقمر لا يضيء إلا في لياليه

« هل أشبهك بالشمس ؟ كلا ! فالشمس إنما تشرق في يوم صحولا

غمام فيه »

وفرع التلميذ الرسول من إنشاده فعاد المعري يقول لطالب العلم الذي

سأله ذلك السؤال : أو سمعتم أعجب من هذا الدهان في مديح عاهل أو سلطان ؟

ما أخالكم سمعتموه ، وما أخالكم تذكرون في الملوك ملكا واحداً كان له

من الأمر النافذ في الرقاب والأذهان ، ما يأمر به كانت الشيوعيين فيطاع .

وسأل سائل : أو لم ينصفوا الأجراء من أصحاب الثراء ؟

قال المعري : لا يا بني . انهم ظلموا أصحاب الثراء ولم ينصفوا الأجراء ،

ولقد أخذوا المال من ذويه ثم أفرغوه في مصانع الدولة ، وما الفرق بين مال

في أيدي التجار ومال في أيدي الولاة ؟

ورجع السائل إلى سؤال لاحق بما تقدم فقال : لكنهم على ما يقولون

قد عدلوا في الأجور بين العاملين فأجر اليوم واحد لا اختلاف فيه

قال المعري : أجر اليوم واحد لا خلاف فيه ولكن العامل المحظوظ

عندهم قد يعطى عدة أجور ، فهي مساواة من ناحية واختلاف من عدة أنحاء

وفرع السائلون عن معاشر الشيوعيين فنهض السائلون عن أمم الشمال

قال طالب علم : أعل الأستاذ قد حمد من قومنا ما ليس يحمده من أولئك الأقوام ؟

قال المعري : نعم ولا أدا جيئك يا بني ... فقد رأيت أنكم أبعد الناس عن مداواة ، وإن بقيت منها أثارة في جميع بني حواء

قال الطالب : وماذا حمد الأستاذ مما شهد فينا ؟

قال المعري وهو يوجز في جوابه : حمدت منكم يا بني تجارتكم التي بنيتموها على التعاون بين البائعين والشارين ، فما منكم إلا من يأخذ كفايته ويعطي كفاية الآخرين ، ولا ربح لأحد منكم خاصة ، بل أتم جميعاً راجحون ، لأنكم بأعون شارون

ذلك يا بني سبيل قوام بين احتكار المحتكرين وبين اشتراك الشيوعيين ، فإذا اهتدى إليه الناس جميعاً فلعلهم يستريحون من تفريط هؤلاء ومن افراط هؤلاء

وحمدت منكم يا بني أنكم لا تفتحون البلدان ولا تقتحمون الأسواق ، وأنتم مع هذا غانمون راجحون ، لكل سلعة من أرضكم طالب غير مغبون وحمدت منكم يا بني تعليم الفقير وتعليم الضعيف ، فما من طفل بينكم إلا وله مدرسته وله معلموه ، وإن أهمله أناس في بلاد أخرى لضعف فيه أو لقصور ظاهر عليه

وحمدت منكم نظافة وصحة ورخاء تعم الأكثرين ولا يحرمها إلا القليل

وحدث منكم رعاية الشيخ الكبير ، فلا يُقلى عندكم ولا تبخلون عليه
بالرزق الكفاف

وحدث منكم — وعرشكم أعرق العروش في أرض المغرب الحديث —
تواضعاً في الملك لا يرى من أحدث العروش .

حدث منكم هذا كله فهل هو كثير أو يسير ؟

فصاحوا جميعاً : بل هو كثير كثير ، من الشيخ الكبير .

قال المعري وهو يتسم : أفتأذنون لي — بعد — أن أحمد منكم شيئاً
آخر فوق ما حدث ؟ أفتأذنون لي أن أحمد منكم الإيجاز في السؤال والقصد
في المقال ؟

فكان سكوت ، وكان ضحك ودعاء ، وكان ذلك جواب الشيخ
الكبير من سائله .

جرالذيول

قال أبو العلاء : ما كنت أحسب أن سأرى هذا يوم قلت في مساوي

ذرية البنات :

وإن تعط البنات فأى بؤس تبين في وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حلياً ويلقين الخطوب ملوّمات
ولسن مدافعات يوم حرب ولا في غارة متغشّات !
فها نحن أولاء في أرض أندلس نراهن مدافعات يوم حرب ، ومتغشّات
في غارة ... بل غارات

كنا نسمع عن هذه الأرض - أرض أندلس - فنحضر في اخلاّدنا الجنة
وحورها ونعيمها ، فاليوم نشهدّها شهادة القرب فاذا هي جحيم مسجور ، وإذا
بالحور فيها زبانية يقذفون بالشرر ويتقلدون السيوف ... ما أعجب ما ترىني
يا بني ! وما أعجب الأطباء يقطعن بأظافر النمورة وينهشن بأنياب الذئاب

قال التلميذ : أو حق يا مولاي انه عجيب ؟ ألم يقل به أفلاطون في الحكمة القديمة ؟ حسبت يا مولاي أنك على ذكرٍ مما قال حكيم يونان ومعلم رسطاليس !

فتأوه الشيخ في استذكار طويل ثم قال لتلميذه : ما سمعت بهذا من كلام يونان وحكمائها . فلعل من عجائب زمانكم أن يكون هذا الزمان أقرب إلى أفلاطون من زماننا نحن السابقين الأقدمين ... ماذا قال معلم رسطاليس في حرب النساء أصلحك الله :

فترجم له التلميذ كلمة من قوانين أفلاطون ، يقول فيها :
 « على البنات أن يتعلمن صناعة الحرب بأجمعها ، وعلى النساء أن يعالجن الرياضة ونظام الجيوش واستخدام السلاح ، ليستطعن — بين أسباب شتى — أن يحرسن ديارهن وأطفالهن حين يندب الرجال للحرب في أرض بعيدة ، وقد يفتحم البلاد جيشٌ مغيرٌ كما يتفق في كثير من الأجيال ، فيكون خزيا للدولة أن يبلغ من جهل النساء بفنون الحرب أن يعجزن عن القتال والاستماتة في الذود عن الأطفال . وألا يكون لهن من عمل في هذه الغارة إلا أن يهرعن ناحبات ناجيات إلى الهياكل والمحاريب ! »

فأوشك أبو العلاء أن يؤمن بصدق ما قال الفيلسوف ، ونزعت فيه نوازع العقل مرة فكادت أن تطغى على نوازع الطبع والعادة ، لولا أن غلبته

النخيزة العربية وغلبه تراث الشرق العريق فالتفت إلى تلميذه منشداً :

وحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلعات !

نعم وأولى من الحديد والنار

ثم استرسل منشداً :

إن من أكبر الكبائر عندى قتل حوراء غادة عطبول

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول

ذلك يا بني حكم ابن أبي ربيعة ، وهو أولى بالحكم فى هذه القضية من

معلم يونان ... أ كثير يا بني أصحاب هذا رأى فى زمانكم الحديث ؟

فأجابه التلميذ وقد لبس لبوس الأستاذ هذه المرة : هم غير قليلين فى المغرب

والشرق . فمنهم فى أرض الصقالبة ومنهم فى أرض الصين وما وراءها ، وكل

من يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة خليق أن يرى ما رآه هؤلاء . فما بال

المرأة لا تحارب والحرب اليوم آلات تدار أسهل من إدارة المغزل ومن شكة

الإبرة فى الثياب ؟

قال الشيخ : هى صناعة قتل سهلت أو صعبت ، فما لكم لا تتركون

للمرأة صناعة الولادة وتدعون صناعة القتل لغيرها كما قال أخو مخزوم ؟ وما لكم

لا تجعلون جيشها كله على مثال تلك الجيوش التى حدثتني أنهم يحشدونها فى

بعض البلاد ، لتقويم الأبدان والصولة ببأس الجمال ؟

فأسرع التلميذ يقول : لعلها الضرورة يأمولاي ! لعل المقاتلين لا يستغنون
عن مدد من النساء إذا قلَّ الرجال

فأدركه الشيخ قائلاً : بل إذا قلَّت الرجولة وأصبحت الحرب وليست هي
من الفروسة ولا من البطولة . . . ما أحسب الآفة عندكم أن النساء أصبحن
كالرجال ، وإنما الآفة فيما أخال أن الرجال أصبحوا كالنساء ، فلا حرج إذن
من المساواة في القتال !

ثم سأل الشيخ : ما هذا الغرام بالحرب في كل شعب من شعوبكم حتى
استنفدت رجالكم وجارت على نساءكم ، واستنفدت سلاحكم وجارت على
أدوات السلم في أيديكم ؟ ما هذه الحاجة الملحة إلى إزهاق الأرواح وتمزيق
الأبدان ؟ أهي فرط كراهة منكم للحياة أم هي فرط خوف من المنية ؟ أم
أنتم مدفوعون إلى حيث لا تعلمون وأنتم تحسبون أنكم تعلمون ؟

وكأنما خشي التلميذ أن يحاسبه الحكيم على سيئات عصره ، وأن يسأله
في هذا سؤال المتهم عن وزره ، فأجابه وهو لا يفقه ما يعنيه :

عن هذا أسألك أيها الحكيم العليم !! فهي معضلة من معضلات الزمن
الآخر نسأل عنها وليس لها من مجيب :

فشك الشيخ غير قليل . وغاب عن صاحبه في تأمل طويل ، وكأنما
أفاق من غيبوبة علوية حين أقبل يقول :

« إنما الحرب يابنيَّ حيلةٌ من ليست له حيلةٌ ، يقدم عليها من يأمن شرها
أو من يخاف جميع الشرور فلا يبقى له ما يأمن . . . وإنما يستमित في الخصومة
من يخاصم الأقدار وإن حسب أنه مخاصم إخوانه من بني الانسان : إنما
يستमित في خصومته من يطلب الدوام لشيء لا يمكن دوامه أو يطلب التبديل
لشيء لا يمكن تبديله ، فهم يحاربون القدر ولا يحاربون أبناء آدم . ومن
حارب القدر يابني لم يحاربه بنصف عزمه ولا بنصف سلاحه ولا بنصف رأيه :
من حارب القدر فأيسر جهده أن يستجمع ، وأن يستमित ، وأن يخسر في
الجانبين وينهزم في الصفين

وهؤلاء أبناء أندلس يريد فريق أن يعيد أمس ، ويريد فريق أن
يستعجل الغيب ، وليس هذا ولا ذاك في يد إنسان ، ولو كان في يد إنسان
لكان ، ولم يستعر بينهم كل هذا الشنآن

قال التلميذ : ألا دواء لهذا الشنآن بين الفريقين ؟ قال الحكيم : حتى
يفقد كلاهما كل قوته ، أو يفقد كلاهما نصف اعتقاده . فإذا انقضم السيف
الأخير في أيدي هؤلاء وهؤلاء فهناك رجاء في سلام ؟ وإذا شك كلاهما في
حقه واعتقد أن نصف الحق معه ونصف الحق مع خصمه فهناك رجاء في
سلام . . . أما وهناك بقية من قوة في الصفين ، وإيمان بالحق الكامل في
الجانبين فلا سلام ولا رجاء فيه !

قال التلميذ وكأنه يمزح :

أو لا يسفر الشيخ بينهما ليظهر لكليهما نصف باطله ونصف الحق عند
خصومه ؟

فقطن أبو العلاء لموضع المزاح من كلامه وتمتم بين شفتيه :
بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحما م وأسمع منه زئير الأسد
ولأفسد من ذاك أن أذهب شفيعاً في حرب الأقدار ، وسفيراً بين
الأعصار والنار . . .

المرأة

نشط الشيخ في ذلك اليوم للبحث والمساجلة ، فأقبل على تلميذه يسأله :
ألا تحدثني يا بني عن تلك الفلسفات التي ذكرت لي أنهم يدورون بها حول
المرأة في الغرب الحديث ، وفي زمانكم هذا الأخير ؟ فقد أنبأتني بالقليل منها
يوم حدثتك برأيي في جنديات الأندلس المقاتلات ، وقد لاح لي مما أنبأت أن
فلسفات القوم في هذا المجال تشتمل على كثير ، وأن آراءهم اليوم يوشك أن
تنصرف كلها إلى فلسفة الزواج وفلسفة العشق وفلسفة الإباحة وما شا كل ذلك
من فلسفات . وإني — كما تعلم — امرؤ قد عنيت بهذا الأمر وأفرطت في
العناية به حتى لزممت الرهبانية ، فماذا يقول القوم فيه ؟ وعلام يقع الخلاف ؟
وكيف يختلفون ؟

قال التلميذ : إني لأستحي أن أقوم من الشيخ مقام الأستاذ ولو في هداية
الطريق ، فكيف بالهداية في الحكمة وأقاويل الحكماء !

قال أبو العلاء : اعتبرها يا بني هداية طريق في بلد أنت به أعلم وأنا فيه غريب . فالغربة قد تكون في الزمان كما قد تكون في المكان ، وأنت صاحب الدار يا بني في زمانك ، فقل ولا عليك من مقام الأستاذ ومقام التلميذ . ألسنت أنا القائل :

رب شيخ ظل يهديه إلى سبل الحق غلام ما احتلم
فقل يا بني ولا تتخرج . وإن أبيت إلا مقام التلمذة فاقنع منها اليوم
بالطاعة فيما أدعوك إليه .

فلم يسع التلميذ إلا أن يجيب سؤال الشيخ ، وأنشأ يقول وهو متلعم
في المقال :

هذه الفلسفات يا مولاي كثيرة كما لاح لك من بوادر الإشارة العارضة ،
فمن أصحابها من يجعل حب المرأة الحب كله ومرجع الأهواء بحذافيرها . ويزعم
أنه حب يضره الطفل في طبعه وهو يرضع من ثدى أمه أو يحبو إلى لعبته أو
يتواثب مع لداته ، وإنه ما من خبيثة يبطنها الإنسان إلا ومناطها هوى من
هذه الأهواء مكبوت ، ونزعة من هذه النزعات يختلف فيها التفسير والتأويل ،
وقد تفصح عنها الأحلام التي يناجى بها الإنسان سريره في المنام ، وإن كانت
المناجاة هنالك بالرموز والأشكال دون المعاني والأفكار .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من نشأ على المذهب الأول ثم عدله ونقحه
بإضافة حب القوة إلى حب المرأة ، أو بإضافة المجد والجاه إلى الشهوة والغرام .

ومنه من يقول إن الأخلاق ينبغي أن تختلف بين أفراد الرجال والنساء كما تختلف أنواع الغذاء ، فالناس في حاجة إلى غذاء متشابه العناصر متقارب التركيب ، وليس من طعام مع هذا هو صالح لجميع الأبدان مطلوب في جميع الأحوال ، فكذلك الأخلاق في جملتها من عمل الخير والدعوة إلى الصلاح قريبة العناصر متشابهة الأوصاف ، ولكنها قد تختلف مع اختلاف المزاج كما يختلف الطعام على حسب البنية ، حتى يكون دواء لهذا ما هو سم قاتل لذلك . فليس لجميع الناس قانون واحد ولا خلق واحد ولا طعام واحد . بل ينبغي أن يحرم على أناس ما يباح لآخرين .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو إلى الاباحة لأنها حالة الطبيعة ، ومنهم من ينكر عليه هذا الزعم فيقول ان الاباحة هي أبعد الأحوال عن طبيعة الأحياء : ألا ترون إلى العجاوات تمنع وتقاتل ثم تعتصم بالعفة والزهادة طوال العام ؟ ألا ترون إلى قبائل الفطرة الأولى كيف تحوط العلاقة بين الرجل والمرأة بالمراسم والشعائر وكيف تحفها بالتمائم والشعوذات ؟ فالطبيعة أحجى أن تكون إلى جانب الامتناع والاعتصام دون الاباحة والانطلاق ، ولا سيما في غرائز الحب ودوافع الشهوات . والحضارة قد علمتنا أنه حيث تكون القيود في الحب تكون نهضة الشعوب ، وحيث تكون الاباحة في الحب يكون الركود ثم الدثور .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو إلى الاباحة لأنها الحل الصالح

عنده لمشكلات الأمم في العهد الحديث . فالناس يتقاتلون لأنهم يتنافسون على المال ، والناس يتنافسون على المال لأنهم يشترون به الشهوات والمظاهر التي هي كالأشراك لاقتناص النساء . فإذا بطلت قيود الجنسين بطل في زعمهم كل ذاك وخفت حدة الزحام والعداء وقلت بواعث الفتنة والاغراء .

ومنهم - وقد كان رئيساً لحكومة كبيرة في دولة عظيمة - من يوصي الرجل أن يجرب كثيراً من النساء ويوصي المرأة أن تجرب كثيراً من الرجال قبل الإيواء إلى حرم البيت وحصن الزواج . فان الرجل والمرأة إذا قضيا الشطر الأول من الحياة في التطواف والتجوال سكنا إلى الزواج وهما جانحان إلى استقرار يعين على الوفاء ، وقناعة تعين على العصمة ، وأصبحا زوجين رشدين وأبوين صالحين مدى الحياة .

قال المعري : حسبك ! حسبك !

قال التلميذ : نعم حسبى حسبى . فقد تعبت من « دور » الأستاذ وشاقنى أن أصغى إليك إصغاء التلميذ... نخذ دورك الساعة يا مولاي وقل لنا ماذا ترى في هذه الآراء ، وماذا تقول في هذه الأقاويل .

ووجم الشيخ قليلاً ثم أنشد من كلامه القديم :

لو أن كل نفوس الناس رائية كراى نفسى تناءت عن خزاياها
وعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها
ثم راح يقول :

إن ما سمعته يا بني بعضه شديد وبعضه حق وبعضه هراء .
 حق إن المرأة هوى النفوس وفتنة المطامع
 والمرء ليس بزاهد في عادة لكنه يترب الامكانا
 وانها تفتن من هجر الدنيا كما تفتن من غاص في غمارها وتقلب في أوزارها
 راحت إلى القس بتقريبها وبيتها أولى بقربانها
 وزارت الدير وأثوابها ضامنة فتنة رهبانها
 وإنها مقياس الحياة لا يعافها إلا من عافته الحياة :
 وإذا الفتى كره الغواني واتقى مرضا يعود وضره ما يطعم
 فقد انطوت عنه الحياة ، وكاذب من قال عنه بيت وهو منعم
 وانها خفية المسارب في دخائل الشهوات :
 وإنما الخود في مساربها كربة العم في تسربها
 وانه لا يؤمن منها على صغير ولا يؤمن عليها من صغير :
 إذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد
 كل هذا حق وكل هذا شديد في مذهب صاحبكم الحديث وفي مذهب
 الحكمة القديم ، إلا أن المرأة ليست كل ما يثير النفس ويوسوس في الضمائر
 وينبث مع الغواية ، وليست كل ما رامه الرجل
 وإنما رام نسوانا تزوجها بما اقتراه وأموالا تمولها
 أو قل مرة أخرى :

وإعسا رام عزاً في معيشته أو خاف ضربة ماضى الحد قلام
أو شاء تزويج مثل الطي معلقة للناظرين بأسوار وأعلام
ذلك قوام الرأيين ووافق الخلافين . أما الرأي في الزواج :

فلا يتزوج أخو الأربعة ين إلا مجربة كهلة
على أنى أقول كما كنت أقول :

إن الأوانس أن تزور قبورها خير لها من أن يقال عرائس
وأقول كما كنت أقول :

تزوج بعد واحدة ثلاثاً وقال لعرسه يكفيك ربعى
فيرضيها إذا قنعت بقوت ويرجمها إذا مالت لتبع
ومن جمع اثنتين فما توخى سبيل الحق في خمس وربع
وأقول كما كنت أقول :

خير النساء اللواتي لا يلدن لكم فان ولدن فخير التسلسل ما نفعا
وأقول كما كنت أقول :

وأصبحت في الدنيا غيبناً مرزءاً فأعفيت نفسى من أذاة ومن غبن
ثم أقول كما كنت أقول :

شر النساء مشاعات غدون سدى كالأرض يحملن أولاداً مشاعينا
ولا أكتمك مع هذا أنى :

تنازعني إلى الشهوات نفسي فلا أنا منجح أبداً ، ولا هي
فأسرع التلميذ يمتحن الأستاذ ، ويهمس في أذنه قائلاً : « وفي المنازعة
ومحن في بلاد الغرب والشيخ قد أفرط في الصيام »
فققه الشيخ وهو يصيح به : إليك عن أيها الخبيث . . . قد خرجنا
من هذه المحنة وصارعنا فيها أستاذك القديم إبليس . . . والله يعلم أكنّا فيها
صارعين أو مصروعين ! ذلك سر مكتوم وحديث مختوم . . . !



« أبو العلاء بين غوايتين »

الحكيان

كان آخر الخطباء في الجمع العظيم يقول :

« إنها مصادفة عجيبة ولا ريب . فهل أقول إنها مصادفة سعيدة ؟ أخشى أن أغضب الحكيمين المحتفي بهما إذا أنا قلت ذلك ، فليس المعرى حكيم المشرق ولا شوبنهاور حكيم المغرب ممن يدينون بالسعادة ، وليس اجتماعهما اليوم في عالم الذكرى من دواعي التفاؤل والاستبشار ... فالعالم مقبل على خطوب وكروب وأهوال وحروب ، ولم يكن مذهب التشاؤم قط أدنى إلى الصدق والاقناع مما كان في هذا العصر المرهوب الجوانب المحذور العواقب ، فإذا سعد الحكيمان بتحقيق ما رأياه وإثبات ما قرراه وإنجاز الوعيد وتقريب البعيد ، فهو اجتماع سعيد ! »

غد - وهو الثاني والعشرون من شهر فبراير - هو تمام مائة وخمسين عاماً

مضت على مولد الإمام الأَكْبَر في مذهب التشاؤم بين الغربيين ، وهو أرثر شو بنهور . فما أعجب المصادفة التي جمعت بينه وبين الإمام الأَكْبَر في هذا المذهب ، عند الناطقين بالضاد ، على ملتقى ألف عام من مولده المجيد إن لم يأذن لنا أن نقول : السعيد !

« أقول إن روح العالم في شدائده وبأسائه قد استحضر روجيهما فحضرا وقرب بين أفيهما فاقتربا ؟ أقول إنها مؤاسة من عالم الخلود لعالم الشقاء والبأساء ؟ أقول إنها نذيران أو بشيران ؟

« على أننا نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من قدره إذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم وإن حقق لنا مخاوف المتشائمين .

« فالتشاؤم - كالتفاؤل - إنما يكون مع الحب والاهتمام ، أو مع الظن الحسن والأمل المشبوب ، تجيء خيبة الأمل حين يكون الأمل معقولا أو شيئا معقول . أما إذا غلب اليأس من البداية فلا تشاؤم ولا إخلاف ظنون .

« الذي يهجو المرأة يحبها كالذي يثنى عليها ، والذي يملأه الغيظ منها كالذي يملأه الشوق إليها : كلاهما يعتد بها ويشغل بأمورها ويحسب الحساب لإقبالها وإعراضها . أما الذي يلهو بها فلا شوق ولا غضب ! ولا فرح بلقاءها ولا حزن لغيابها ، فليس ذلك من العشاق المدلهين ولكنه من طلاب الفراغ العائنين .

« كذلك الحياة في زماننا قلما تتسع فيها النفس لتفاؤل أو تشاؤم ، وقلما ترى فيها إلا مُزجياً لفراغ أو لاهياً بحاضر مبتور ، لا يرجع إلى ماضيه ولا يتربّع عقباه .

« كانت الحياة حليلة نحاسها على الأمانة والخيانة ، وكانت في بعض أجيالها عشيقة نحاسها على العطف والمودة ، فأصبحت عندنا بنتاً من بنات الهوى لا نحاسها على شيء ولا نغار عليها من أحد ، ولا ننحى عليها بلوم ولا نخصها بثناء .

« فنحن كما قلنا : نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من قدره إذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم . ليتنا كنا متشائمين ، وليتنا نحفل بالحياة ... ما أخالنا نخطئ إذ نقول إن تشاؤم أبي العلاء وتشاؤم زميله في الغرب سعادة بالقياس إلى ما نحن فيه ... ! »

* * *

كان هذا القائل آخر الخطباء في الجمع العظيم الذي التقى من بلاد المشرق والمغرب لتحية الحكيمين في إحدى العواصم . فكان في هذه التحية تركية للمذهب المحتفى بصاحبيه ، كما كان فيها مناقضة له وتشكيك فيه ؛ لأنها جاءت في إبانها دليلاً جديداً على اتساع أفق الحياة واستغراقها لجميع ما يقال فيها من تشاؤم وتفاؤل ، كما تهضم البنية القوية ما ينفع وما يضر .

وقد خرج حكيم المعرة وهو يعجب ويسأل تلميذه من فرط العجب :

« أَحَقُّ أَنْ التَّشَابَهَ بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُلِ عَلَى هَذَا الْمَدَى مِنَ الْقُرْبِ وَالتَّجَاوُرِ ،
 مَعَ مَا يَبِينُنَا مِنْ مَسَافَةِ الزَّمَانِ وَمَسَافَةِ الْعَنْصَرِ وَمَسَافَةِ الْفِكْرِ وَاللِّسَانِ ؟
 قَالَ التَّلْمِيزُ : بَلْ هُوَ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ يَا مُوَلَايَ . فَلَا عَجَبَ أَنْ يَتَّفَقَ الرَّجُلَانِ
 فِي النَّظَرَةِ إِلَى الدُّنْيَا عَلَى تَبَاعُدِ الْجَيْرَةِ وَتَقَاوُتِ السَّيْرَةِ ، وَلَكِنْ الْعَجَبُ الْعَاجِبُ
 أَنْ يَتَّفَقَا عَلَى التَّفْصِيلَاتِ وَيَتَشَابَهَا فِي الدَّقَائِقِ وَالْعَرْضِيَّاتِ ، وَفِيمَا لَيْسَ هُوَ
 مِنْ جَوْهَرِ الْمَذْهَبِ وَلَا مِنْ الضَّرُورِيَّاتِ الَّتِي يَقْضِي بِهَا التَّوَافُقُ فِي الْأَصُولِ ،
 وَالتَّمَثُلُ فِي الْعُقُولِ .

قَالَ أَبُو الْعَلَاءِ مُسْتَفْهِمًا : وَمِثَالُ ذَلِكَ ؟

قَالَ التَّلْمِيزُ : مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ يَقُولُ : إِنْ الْمَرْءَ يَعِيشُ إِلَى السَّادِسَةِ
 وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِهِ كَمَا يَعِيشُ التَّاجِرُ الَّذِي يَنْفَقُ مِنْ رِبْحِهِ وَنَوَافِلِهِ ، ثُمَّ يَنْحَدِرُ
 وَيَنْقُصُ وَلَا يَزَالُ فِي تَقْصِهِ وَهَبُوطِهِ حَتَّى يَنْفَقَ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ إِلَى يَوْمِ إِفْلَاسِهِ
 وَوَفَاتِهِ . وَأَنْتَ يَا مُوَلَايَ تَقُولُ :

إِذَا مَا تَقْضَى الْأَرْبَعُونَ فَلَا تَرُدُّ سِوَى امْرَأَةٍ فِي الْأَرْبَعِينَ لَهَا قِسْمٌ
 فَانِ الَّذِي وَفَّى الثَّلَاثِينَ وَارْتَقَى عَلَيْهِنَ عَشْرًا لِلْفَنَاءِ بِهِ وَسَمٌ
 زَمَانَ الْعَوَانِي عَصَرَ جِسْمِكَ زَائِدٌ وَهْنٌ عَنَاءٌ بَعْدَ أَنْ يَقِفَ الْجِسْمُ
 وَالرَّجُلُ يَقُولُ بَغْلَبَةِ الْإِرَادَةِ عَلَى الْفِكْرَةِ ، وَضِيَاعِ الْعُقُولِ مَعَ الشَّهَوَاتِ
 وَأَنَّ الْعَقْلَ يَكْفِ عَنْ الْعَمَلِ ، وَأَنَّ الْعَمَلَ لِمَنْ لَا يَعْقِلُونَ ، وَأَنْتَ يَا مُوَلَايَ تَقُولُ :
 وَتَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ يَثْنِي غَرْبَهُ وَيُرِدُّ جَامِحُهُ إِلَى الْإِقْصَارِ

وتقول :

إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم إلى الغي طبع أخذه أخذ صاحب

وتقول :

وقد غلب الأحياء في كل وجهة هواهم ، وإن كانوا غطارفة غلبا

وتقول :

والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له في ابتغاء الرزق تقدير
والرجل يرى أن النوم سلفة مستعارة من الموت ، وهذا رأيك في أبيات

كثيرة منها :

ونومي موت قريب النشو ر ، وموتي نوم طويل الكرى

ومنها :

وموت المرء نوم طال جداً عليه ، وكل عيشته سهاد

ومنها :

وفضيلة النوم الخروج بأهله عن عالم هو بالأذى مجبول
والرجل يعطف على الحيوان ، ويؤثر صحبة الكلب على صحبة الانسان ،
وأنت مع تحريمك أكل الأحياء تقول في الكلب خاصة :
سُبِّيتَ بالكلب فأنكرته والكلب خير منك إذ ينبح

والرجل يقول إن الإرادة تورث من الآباء ، وإن الذكاء يورث من

الأمهات ، وقد أوشكت يامولاي أن تقول ذلك حين قلت :

كأن حواء التي زوجها آدم لم تلقح بشخص أريب
قد كثرت في الأرض جهالنا والعاقل الحازم فينا غريب
والرجل يرفع من أقدار نساك الهند ، وأنت كذلك ترفع من أقدارهم ،
ويذكر مذاهب المجوس في الخير والشر ، وأنت تذكرها كما جاء في
قولك :

فكر « يزدان » على غرة فصيح من تفكيره « اهرمن »
والرجل يقول في الزمان : « نحن نُسَلِّب يوماً كل مغرب شمس »
ويقول فيه : « إن وجودنا مستقر على الحاضر الذي ما يني أبدأً متسرباً
طائراً فلا بد له - أي لوجودنا - أن يتلبس بالحركة الدائمة الدائبة بلا أمل في
الوصول إلى الراحة التي ينشدها ، مثلنا في ذلك مثل المنحدر من جبل عال فهو
يسقط إذا حاول الوقوف •

وذلك شبيه يامولاي بقولك :

نفس بعد مثله يتقضى فتمرّ الدهور والأحيان

وقولك :

أما المكان فتأبث لا ينطوى لكن زمانك ذاهب لا يثبت

وغير ذلك التشابه كثير ، يدل عليه تناقض التعبير بينكما كما يدل عليه

التقارب في التفكير .

فالرجل يسأل : « ما هو التواضع إلا أن يكون ذلة مزيفة يلتمس بها
المرء غفراناً لفضائله ومزايده في عالم مكظوظ بالحسد والضغينة ؟ »
ومولاي قد تلقع بالتواضع كثيراً لاتقاء الشر والملاحاة ، وخلع التواضع
كثيراً في قصائد الفخر والمباهاة ، وشغلته هذه المسألة من حيث شغلت صاحبه
في جانبي الاقرار والإنكار

قال أبو العلاء : إن هذا لعجيب ، وإن الرجل إلى لجد قريب ، وما
أحسبها إلا قرابة في الطباع لا قرابة في الرأي والاطلاع ، فإن تشابه الطباع
هو الذي يوحى القول الواحد إلى أفواه الكثيرين ، أما المتشابهون في العقول
فقلما يتفقون ، وقد يتنابدون ، لأنهم متشابهون !!! . . .



« أبو العلاء وشو بنهور يتلاقيان »

حكم وحكمة

كان أبو العلاء قد أقام في بلاد الانجليز بضعة أيام ، شهد في خلالها
مجامع العلم والأدب ومعاهد الفن والرواية ، وسمع الكثير من أنباء السياسة
العالمية ، وأنباء الأزمة التي أخرجت وزير الشؤون الخارجية ، وأعجبه نمط
الحكم وانتظام الأمور بين الحكام والرايا ، فجلس يحاور تلميذه وتلميذه
يحاوره ، ويأبى التلميذ إلا أن البرلمان هو أساس هذا النظام وسبب هذا
الاعتدال في تدبير الأحكام ، ويأبى الحكيم إلا أن الأمة التي تنجب
البرلمان تعرف الحكم الصالح بغير برلمان ، فلو لم يكن فيها نواب وناخبون ،
لكان فيها الحكم كما ينبغي أن يكون ، لأنها هي المرجع وهي الأساس ،
وكل ما عدا ذلك فهو صور وأشكال ، يأخذها أناس وينبذها أناس .

قال التلميذ : بلى الرأي هنا للكثرة من سواد الأمة ، وما على الحكام
إلا أن يطيعوا ما يأمر به هؤلاء .

قال أبو العلاء : وهل للكثرة من السواد رأى ؟ إن الله يقول :
« ولكن أكثرهم لا يعقلون » ويقول : « وإن تطع أكثر من في الأرض
يضلوك عن سبيل الله » .

قال التلميذ . ويقول : « وأمرهم شورى بينهم »

قال أبو العلاء : ونسيت أنه جل جلاله يقول : « فاسألوا أهل الذكر » .

ويقول : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟

قال التلميذ : فإذا يسمى الشيخ هذه الحكومة التي يسمونها هنا
بالحكومة النيابية ؟

قال الحكيم : أسميها الحكومة النيابية واختلف ما شئت في معنى النيابة
وفيمن ينوب وفيمن ينوب . فالرأى لأهل الرأى والحكم لأولى الحكم ،
والطاعة لمن يستطيعونها ، ولا مشقة في الطاعة على سواد الناس إذا صلحت
الأحوال وتقايلت الأهواء ، فلا غلبة من هنا ولا هزيمة من هناك ،
ولا يأس من تبدل الأمور كلما اشتدت سطوة فريق واشتدت معها شكاية
فريق .

قال التلميذ : أكاد يامولاي أن أتابعك في قولك وإن كنت تنظر إلى
زمان غير زمانك ، فالحق أننا هنا بين أمة توازنت جوانبها قتل فيها الجور
وكثرت فيها الاعتدال : إن طغى النبلاء صمد لهم كبار التجار ، وإن تبحر العلية
أو تمرد السفلة صمد لهم أوساط الناس ، وإن تحكم رجال الدين قابلهم رجل

العلم ، وإن صال الجند والقادة في البر فهناك الجند والقادة في البحار :
تقابلٌ وتوازن لا يطغى فيه جانب على جانب ، ولا فضل فيه لتدبير فئة على
فئة ، وإنما هو من صنع الجغرافية ومن صنع التاريخ ومن صنع الفئات كافة ،
وما داموا على هذا فهم في صلاح دائم ، وأخشى أنهم لا يدومون .

وإن التلميذ ليوشك أن يمضى في مقاله إذا بحاجب الباب يحمل إليه
رسالة من وزير الشؤون الخارجية المستقيل ، وإذا بالوزير يطلب الإذن في
مقابلة الحكيم ، وإذا بالحكيم يسأل التلميذ ويعجب : ما خطب الرجل
وهو في أزمت محرجات لا يفرغ فيها الساسة للأدب والأدباء ولا للشعر
والشعراء ؟ والتلميذ يشرح له بعض ما يعلم من شأن ذلك الوزير ، ومن
شؤون سائر الوزراء في تلك البلاد .

قال التلميذ فيما قال : إنه يامولاي يعرف اللغة الفارسية !

قال أبو العلاء : ولكنى لا أعرفها .

قال التلميذ : أعلم ذلك ، ولكنه يامولاي قد اطلع على شعر حكيم
الفرس الخيام ويعنيه أن يلقي حكيم العرب أبا العلاء ، وهو فيما يحسبه بعض
آدباء الغرب أستاذ الشاعر الفارسي ، وفتح هذا الطريق في آداب المشرقين .

قال أبو العلاء : أو كثير من وزراء هذا البلد من يعنى بهذه المطالب ؟

قال التلميذ : غير قليل . فمنهم من يكتب في الحكمة والعلوم ، ومنهم

من يكتب في نظام الشعوب وتدير الممالك ، ومنهم من يكتب في الخطابة والتاريخ ، ومنهم من يكتب في الطير والسمك ، ومنهم من يكتب في مشاهد الطبيعة ومحاسن الفنون ، ومنهم من ينقد أهل الفن والأدب فيتفق له من صائب النقد ما ليس يتفق لرجال هذا المقام وفرسان هذا الميدان كما يقولون . أيدكر مولاي تلك الروايات التي شهدناها في معاهد التمثيل فأعجب الأستاذ ببعضها وسأل عن كاتبها ؟

قال المعري : تعني الرجل المسمى « برناردشو »

قال التلميذ : إياه أعني

فعاد المعري يسأل : وما شأنه في هذا السياق ؟ أهو وزير من أولئك

الوزراء ؟

فأجابه التلميذ : كلا بل هو أديب كتب عنه عشرات من الأدباء ، فلا أذكر أن واحداً منهم أصاب في نقده ما أصاب الوزير الذي قال في شخوص رواياته : « انها تظهر في الحياة لما تقول لا لما تعمل أو تكون ، ومع هذا هي صالحة للحياة »

قال أبو العلاء : صدقت يا بني فما أعرف لذلك الكاتب المقوال صفة أوجز ولا أصدق من هذه الصفة ... فمن يكون الوزير القائل هذا ؟ أهو زائرنا اليوم ؟

قال التلميذ : ذاك يدعى شرشل وزائرنا يدعى ایدن ، وكلاهما في ميدان

الأدب ومناصب الحكم سواء ، وإن كان هذا أدنى إلى المسألة وذلك أدنى إلى الصرامة والنضال .

فأطرق المعري ههنا ثم أدار وجهه إلى تلميذه وقد اطمأن إلى حديثه ، وقال له « ما أحسب اشتغالهم بهذه المطالب إلا من الخير . فان التفرغ للحكم — بل لعمل واحد كائن ما كان — سبيل إلى العنت وضيق النظر وقلة الساحة ، ومن تعددت مطالبه كان خليقاً أن يتسع أفقه للخصومة والخلاف ، وأن يعود وهو أدنى إلى المودة والإنصاف

ثم هتف بالتلميذ : لقد أطلنا على الرجل لحظات الانتظار ، فأسرع ! أسرع إليه بالدعوة ، وبالاعتذار .

ويطول سرد الحديث الذي جرى بين الحكيم والوزير ، فحسبنا منه ما استطرد إلى السياسة وتدير الشعوب . فقد أفاض الرجلان في مقاصد القول حتى استنفذا منها كل ما يخوضان فيه ويشاركان في مناحيه ، وإنهما ليهمان بالافتراق إذ يقحم التلميذ سؤالاً كان من حقه أن يسأل لولا أن شغل عنه المتحدثان بأفانين الأدب والثقافة ، ولعل التلميذ قد غر عليه أن يرى في سياسة العصر رأياً لا يقره عليه شيخه وأستاذه فاندفع يقول :

ألا يسأل مولاي زائرنا الكريم فيما طرقناه من حديث الحكومة والبرلمان ؟ فما ينبئنا مثل خير !

ووافق السؤال هوى من نفس الحكيم فأوجز الأمر للوزير وأنصت

يترب منه الجواب

قال الوزير : سر التوفيق في حكومة هذه الأمة أن يتم فيها الأمر
الجليل كما يتم الأمر الصغير وليس فيها من يعتقد أنه يريد كل الإرادة
أو يأباه كل الآباء ، وأنهم قد أحسنوا الخصومة في الجسد ، فالغالب منهم
والمغلوب في رياضة لا توغر الصدور ولا تحفظ القلوب .

خليفة دانتى

قضى المعرى أياماً في البلاد الانجليزية وهو يستمع إلى الأنباء التي تفيض
بها الصحف رثاءً لشاعر الطليان «جبريل دنزيو» وتعقياً على أدبه ومغامراته
في الحب والحرب والسياسة . فسأل صاحبه : من يكون الرجل الذي يغطون
به هذا اللغط في بلاد ليس بينها وبين بلاده صفاء ، ويوشك أن يستعر بينهما
لهيب الجفاء والبغضاء ؟

قال صاحبه : هو خليفة دانتى !

قال المعرى : الآن زدتنى به معرفة ! ومن دانتى يرحمك الله ؟

فتاب التلميذ إلى نفسه وهو يعتذر من فلتات وهمه ! فقد طالما اقترن اسم
المعرى واسم دانتى في قراآته حتى حسب أنهما متعارفان ، وأن المعرى لا يجهل
اسم قرينه ولا يغيب عنه أثره وتاريخه ، فقال :

حسبتك يامولاي تعرفه وتعرف الصلة بينك وبينه ، فقد زعم بعض الأدباء
من أبناء الأندلس المحدثين أنه تلميذك وأنه اقتبس منك روايته المقدسة ، لما

بينها وبين رسالة الغفران من المشابهة . فهي رحلة بين الأرض والفردوس والجحيم ، ومقابلة للأدباء وذوى الشهرة من الصالحين والغاوين ، وحكاية لما يصنعون في الدار الآخرة قياساً على ما كانوا يصنعون في الدار العاجلة... وقد سبقني الوهم حتى كدت أسألك : أصبح أنه أخذ منك تلك الرواية ؟ وإنما الوجه أن أسأل « دانتى » لو لقيته كما لقيتك ، فهو أقن بجواب ذلك السؤال قال المعرى : وماذا فعل خليفته ؟ أترأه كتب رسالة أخرى على نمط رسالة الغفران ؟

قال التلميذ : كلا يا مولاي وإنما يسمونه خليفة « دانتى » لأنه أشهر شعراء الطليان في العالم الحديث كما كان دانتى أشهرهم في زمانه . أما مادة الأدب فلا مشابهة بينهما فيها ولا مقارنة ، بل لعلهما أقرب إلى المناقضة والمباينة في كثير من الأقوال والنزعات والأخلاق

واسترسل التلميذ في شرحه وهو لا يحسب إلا أن الحكيم مسترسل في صمته ليستزيده من الشرح والتفصيل ، فجعل يقول : لقد كان دانتى عُذرياً في هواه متديناً في شعره ، صارماً في حياته . أما خليفته فمذهبه في الحب إشباع الشهوات واستنفاد متعة الحياة ، ومذهبه في الدين مذهب أهل العصر من الشك والاباحة ، وسجيته أقرب إلى العريضة منها إلى الصرامة وإلى الضحك التائر أقرب منها إلى العبوس الرصين ، وكان دانتى أخرى بالخطوة عند النساء ولكنه لم يحظ منهن بطائل . أما خليفته فهو بين الصلح والقماء ولكنه

مجدود عند الشواذ من بنات الفن ورائدات الغرائب والبدوات ... على أنه
كان من الشهوانين بالأعصاب ولم يكن من الشهوانين باللحم والجسم ، وكانت
لذاته رعدة تهز الأوصال ولم تكن أكلة يملأ بها ماضيه ويمحشوها أحشاءه ،
فهى وليدة القلق والحركة وليست وليدة الترف والاستئامة ، وكأنها قد أصبحت
بذلك في زعمه أقرب إلى الطموح والمثل الأعلى ، وأبعد من الغواية والاسفاف
فقاطعه المعرى منشداً :

جهلت أقاضى المصرأ كبر مائماً بما ناله ، أم شاعر يتغزل
ألهذا يا بنى قد شهره وقدره ، وبهذا يا بنى قد أ كبروا ذكره وسيروه ؟
فأحس التلميذ لهجة التأفف والاستنكار في سؤال الحكيم المعرض عن
الشهوات والذات ، وجاراه من حيث لا يشعر قائلاً :
بل لعلمهم قد شهره لمغامراته في الحرب والسياسة كما شهره بمغامراته في
الحب والغواية

قال المعرى : وما ذاك ؟

قال التلميذ : إنه كان من أهل بلد صغير فصلوه من موطنه الكبير ، فلما
كانت الحرب التي يسمونها بالحرب العظمى طمع في رجعة ذلك البلد وسعى إلى
الوصل بين منشأ أهله ومستقر قومه ، فحالت الحوادث دون ما طمع فيه وسعى
إليه ، فحمل السلاح وغزا ذلك البلد وأقام نفسه حاكماً عليه وأبى أن يبرحه
إلا وهو قتيل ، بل جعل يصيح على مسمع العالم كله : انه لن يبرحه وهو

قتيل ، لأنه أقسم ليموتن فيه وليدفنن في ترابه ، بل أقسم ليكونن هناك نصيراً لكل من أضاع وطناً أو غصب على وطن ، ونادى بدعوته فإذا هي كما قال : « أعظم الدعوات وأجملها وأشدّها نفمة على خسة العالم الشائخ وهتره وتخريفه في هذه الأيام ، لأنها تمتد من إيرلندة إلى مصر ، ومن مصر إلى روسيا فأمریکا ، ومن رومانيا إلى الهند : تجمع الشعوب البيضاء والشعوب ذات الألوان ، وتصلح بين وحي الإنجيل ووحى القرآن ، وتمشي بالوئام بين أتباع عيسى وأتباع محمد ، وتمزج في إرادة واحدة كل ما وسعته الأمم في نخاعها وفي عروقها من ملح وحديد لإمداد النفوس بغذاء العمل والحركة . وسنتنصر لا محالة ! وسينضوى الثائرون من جميع الأمم بين جميع أبناء آدم إلى أعلامنا وسينتضى الغزل المظلومون سلاحنا ، وسندفع العنف بالعنف والشدة بالشدة ، ونشنها غارة جديدة كغارة الصليبيين لنصرة المساكين وإغاثة الأمم الفقيرة المنزوفة ، ونرسلها شعواء على المرابين والمبتزين الذين غنموا بالأمس أسلاب الحروب ويغنمون اليوم أسلاب السلام »

قال المعري : أضغات أحلام ، وشطحات أوهام ... ثم ماذا كان من شأنه في ذلك البلد ، وماذا كان من شأنه مع المظلومين والمستضعفين ؟ فابتسم التلميذ وقال : هو ما تقول أيها الحكيم . فما هي إلا أضغات أحلام وشطحات أوهام ، وما هو إلا أن تبدل الوزراء في حكومة بلاده حتى خرج حياً من البلد الذي أقسم ليموتن فيه وليدفنن في ترابه ، وما كان قد دخله

من قبل إلا وهو على تواطؤ مع قادة الجيش ورجال الدولة ، فلم يمنعوه ولم يوقفوا في طريقه .

فابتسم الحكيم ابتسامته المرة وعاد يسأل وكأنه يعلم جواب ما سأل عنه قبل الافضاء به إليه :

والمساكين المستضعفين ؟

فقهره التلميذ ناسياً أدبه ووقار شيخه ، وقال : أما المساكين المستضعفون فقد جردت عليهم حكومتهم جيشاً يزيدهم مسكنة وضعفا ...

فتعجل الشيخ سائلاً ؟ فماذا صنع خليفة دانتى وخليفتي يرحمك الله ؟ هل أعطاهم من سلاحه ما ينتصونه ؟

قال التلميذ : بل أرسل عليهم شواظاً من شعره يحض به الجيش الزاحف على حسن البلاء وتشديد النكير .

فوجم المعري مهموماً ولم يزد على أن قال :

صدق الله العظيم « يقولون ما لا يفعلون » .

لعِبُ العَبْقَرِيَّةِ

كان أبو العلاء في أيامه الأخيرة بين أمم الغرب كثير السامة من لقاء الناس ، كثير النفور من الجامع والمحافل ، كثير الاعراض عن الجدل في المذاهب والآراء والفلسفات التي سمع من أخبارها في أيام ما لم يسمعه في أعوام يوم كان ب قيد الحياة

« ما النحو؟ ما الشعر؟ ما الكلام؟ » كما قال في بعض أبياته^(١) ...

كلها ككل شيء في هذه الدنيا

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدي إلى غناء اجتهاد
وكانت للأمر في أول عهده بالقوم جدةً وغرابةً ، فكان يحتمل الجامع والمحافل ما بقيت الجدة والغرابة ... ثم نصلت الطلاوة وزالت الغشاوة فإذا الجديد كالقديم وإذا العجم كالعرب ، وإذا الدنيا هي الدنيا والناس هم الناس

(١) من أبيات يقول فيها :

أف لما نحن فيه من عنت
فكلنا في تحيل ودلس
ما النحو ما الشعر ما الكلام وما
مرقش والمسيب بن علس ؟

والحياة هي الحياة ! وكل يوم دعوة ، وكل يوم خروج على غير طائل ، أو على ضجة ما كان أغنى عنها تينك الأذنين اللتين حجبهما الرجل عن الصوت ، بعد أن حجبت الأقدار عينيه عن الضياء

قال يوماً لصاحبه : كنت أحسب الدنيا بنية مطمورة في القدم فكلمنا غاص الإنسان فيها كان أدنى إلى حقائقها وأسرارها ، فلما بعثت في هذا العصر الحديث حسبتها منجماً مقبلاً كلما أمعن الإنسان في غده بعد يومه كان أدنى إلى تلك الحقائق والأسرار ..

فأسرع صاحبه يسأله :

فالآن ماذا تحسبها ؟

قال أحسبها متاهة مغلقة ، فكلمنا رجعت فيها أو تقدمت فأنت في مكان واحد من المدخل أو من المخرج ، وقد أغلقت فلا مدخل ولا مخرج هناك وكان صاحبه أو تلميذه من أبناء العصر المنشئين على تربيته وعاداته : كل دعوة تأتيه فإما لحضور وإما لاعتذار ، وكانت عنده دعوة من مؤتمر الفلسفة والأديان ، ينتظر أصحابها الإجابة من حكيم العرب وحكيم القرون الوسطى . فبماذا يجيب ؟ والحكيم لا يريد الحضور ولا يريد الاعتذار ؟ تلك فرصة سانحة يوم عرض الحكيم للعالم وشبهها تارة بالبنية المطمورة وتارة بالمنجم المحفور ، وتارة بالمتاهة المغلقة

فعاد التلميذ إلى المفاتحة في أمر الدعوة إلى مؤتمر الفلسفة والأديان ، وعاد

الحكيم إلى الرفض والإعراض وزاد متهمًا ساخرًا : مؤتمر يشاور فيه بعضهم بعضاً فيما يدينون به من عقيدة !! . . . ليوشك القوم غداً أن يتشاوروا فيما يحبون من وجه جميل وفيما يأكلون من فاكهة لذة !! وهل يرجع المرء فيما يحبه من جمال وفيما يشعر به من لذة وفيما يعتقد من طمأنينة اليقين إلى مشاورة الآخرين ؟

فعلم التلميذ أن نوبة النفور أصلح هنا للخوض في مسائل المؤتمر من نوبة الاقبال والموافقة ، واقترح على الشيخ أن يسأله وأن يدون جوابه ، وأن يستخلص من الحديث ما يلقيه على المؤتمرين ، نائباً عن الشيخ ، والشيخ معافى من مشقة الذهاب ومشقة السؤال والجواب

قال التلميذ : أنت من العقليين يا مولاي أم من الفطريين
فسأله مولاه :

ما العقليون وما الفطريون هداك الله ؟

فلخص التلميذ مذهب العقليين ومذهب الفطريين في كلمات موجزات ، وقال إن العقليين يحسبون أن الاقتناع هو سبيل الإصلاح والهداية ، والفطريين يحسبون أن البداهة قبل التفكير وأن الاقتناع قلما يغالب الأهواء . . . فمن أى الفريقين ياترى يكون الشيخ الجليل ؟

قال أبو العلاء : من كلا الفريقين !

أنا من العقليين حين أقول :

كذب الظن لا إمام سوى العقـل مشيراً في صبحه والمساء
وأنا من الفطريين حين أقول :

العقل يسعى لنفسى في مصالحها فما لطبع إلى الآفات جذاب
وأنا لست من هؤلاء ولا هؤلاء حين أقول :

وبصير الأقوام مثلى أعمى فهاوما في حندس نتصادم !!

قال التلميذ : خرجنا من البنية المطمورة ومن المنجم المحفور ودخلنا المتاهة

المغلقة يامولاي : هذا تناقض والحق لا يتناقض. فإذا أقول للمؤتمرين من رأى

الشيخ في حقيقة الحق بين هذه الأمور ؟

فهتف به الشيخ ضاحكاً وقد سرى عنه بعض السامة : بل التناقض

للحقائق يابنى لا للأباطيل . . .

ان الأباطيل تتغير وتتبدل فيسهل التوفيق بينها بقليل من النقص هنا

وقليل من الزيادة هناك ، أما الحقائق فهي التي تقف في سبيلنا وقفة الصخور .

لا تحيد من يمين ولا من شمال ، وعلينا نحن أن نسلك بينها ونتحول من

حولها ، فان أردت أن أتحوّل بك في دروبها قليلاً فاعلم إذن أننا نتبع العقل فيما

هو للعقل من رأى وتفكير وتجربة ومشاهدة ، وإننا نتبع الفطرة فيما هو الفطرة

من ذوق وطمأنينة وتسليم ، وإننا لا نطلب من الفطرة أن تصبح عقلاً ولا

من العقل أن يصبح فطرة ، وإنما نستشير كليهما حيث يشير . . .

وبدا لأبي العلاء أن تلميذه المصغى إليه يستريح ويستقر على ما سمع

فأدركته عارضة من لعب العبقرية ولعب الطفولة الخالدة . وهل العبقرية الخالدة إلا حياة متجددة ؟ وهل يلعب الطفل إلا لما يدركه من جدة الحياة وإقبالها ؟ فكما يرى الطفل من ينامون إلى جانبه وهو يقظان فتأني عليه شيطنة الحياة العارمة إلا أن يوقظهم معه ويعيدهم بمساس من القلق الذي يشتمل عليه ، كذلك العبقرى لا يطيب له أن يأرق وحده والناس هادئون ... فمن ثم إن شئت يقظات الأحلام والناس نيام ، وشيطنة الخلود والفانوس سادرون في موت الجمود : قل إن شئت إنها جدة تلطف جدها ، وأنها حلاوة تخالط مرارتها ، ولكنها - بعد كل ما يقال - لا تخلو من جانب اللعب فيها وجانب الرياضة ، ولن يستحق الجد ما ليس فيه لعب ولا رياضة

بدا ذلك لأبي العلاء فأولماً إلى تلميذه يسأله وقد كفّ هو عن سؤاله : أراك صدقت وآمنت . فما لك لا تسأل : ومن الذى يستشير العقل ؟ ومن الذى يستشير الفطرة ؟ أفى الإنسان شئ خارج العقل وخارج الفطرة فهو الذى يكون منه السؤال ثم يكون الجواب إما من العقل المسئول أو من الفطرة المسئولة ؟ وما رأى إذا كان السائل هو الفطرة والمجيب هو العقل ؟ وما رأى إذا وقع الخلاف على السؤال وعلى الجواب ! ؟

وفوجئ التلميذ . ولكنها مفاجأة وقعت منه موقع السرور والتأهب ، لأنه انتظر بعدها مزيداً من الاستفسار ومزيداً من التفسير . فقال إذن أنت

يامولالى من الجبريين؟! ولا أدري كيف فاتنى الساعة أن أذكر ذلك
وأنت القائل :

والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له فى ابتغاء الرزق تقدير
قال أبو العلاء ولا تزال فيه تلك العارضة من لعب العبقرية : ولا تدري
أيضاً كيف فاتك الساعة أننى لست من الجبريين ولا من القدريين لأننى
أنا القائل :

لا تعش مجبراً ولا قدرياً واجتهد فى توسط بين بينا
قال التلميذ وكأنما شملته تلك العارضة التى استولت على أستاذة فى تلك
الساعة :

وهل هذه إلا الجبرية بعينها؟ لا تريد أن تقول إن الإنسان مجبر ولا
تريد أن تقول أنه مخير. ولا تفصل فى المشكلة بل تدع الفصل فيها لعالم الغيب
أو عالم الشهادة... ماذا يكون الجبريون إن لم يكونوا هكذا غير مختارين
فيما يفكرون وفيما يعتقدون؟

فأصغى المعرى وأعجبه ما سمع من تلميذه فأولماً موافقاً : « نعم هى الجبرية
فى أرجوحة ذاهبة آتية . وهى خير من الجبرية فى قيد مقيم .
قال التلميذ :

لقد عدم التيقن فى زمان حصلنا من حجاه على التظنى

فہتف به المعری : ويحك انك لتتعبني بكلامي القديم تعقب المذنب
بإقراره... فهلاً أغناك حفظك عن مطاردتي بالسؤال والاستقصاء ؟
فلاحقه التلميذ قائلاً : المدى يامولاي في هذه المسائل فسيح ، والتعب
لا يضير ، وخطوة واحدة إلى الأمام أو خطوة واحدة إلى الوراء لن تضيق
النطاق ، ولن تقرب اللحاق

قال الشيخ مترقباً : ثم ماذا ؟

قال التلميذ مجارياً : ثم علام الجزاء إذا كنا فيما نحسن أو نسيء مجبرين
مسيرين ؟

قال الشيخ : إذا كانت النفس تعمل الخير مكرهة فما حقها في الجزاء ؟
وإذا كانت النفس تعمل الخير مختارة لأنها تؤثره وترضاه وتجد فيه الغبطة
وفي غيره الندم والحسرة فما حقها أيضاً في الجزاء ؟ فأحر بنا ألا نشغل بالنا
بمثوبة أو عقوبة

ولتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها
إن الطفل يا بني يؤجر بالدرهم لياً كل الطعام وفيه مصلحته ونماؤه ، فإذا
كبر الطفل بذل هو الدرهم وصبر على بذله وتحصيله لياً خذ به طعامه ويشبع به
نهمته وأوامه ، وكذلك تصغر النفس فتؤجر على خيرها الذي تجهله ، وتكبر
النفس فتبذل هي الأجر على ما تعمل من خير ، وذلك هو الجميل وذلك
هو الثواب .

أدين رب واحد وتجنّب قبيح المساعي حين يظلم دائن
ثم أنشد :

وليس اعتقادي خلود النجوم ولا مذهبي قدم العالم
ثم عاودت الشيخ تلك العارضة من لعب العبقرية الخالدة. فصاح بالفتى :
أسرع . أسرع يا بني إلى مؤتمر الفلسفة والدين ، أسرع إليهم فقد طال بهم
الانتظار ، في طلب هذا الحوار ، الذي لا يستقر عليه قرار ، ولا يزيد به عدد
الأبرار ، ولا ينقص به عدد الفجار

ثم تتم بين شفتيه :
ما النجوم؟ ما الشعر؟ ما الكلام؟
كلام في كلام في كلام !

الاختراع

السفينة في طريقها إلى المشرق والمعري وصاحبه على مقدمها يستقبلان
«لهواء، والمذيع يغني الأنشودة المشهورة على لسان امرأة لاهية تقول بالفرنسية
« عندما تضمنى بين ذراعيك ، أنا أعلم الكلمة التي ستقولها .. ستقول
إني أحبك ! وهي كلمة كاذبة ولا شك ... ولكنى مع هذا أحب أن أسمع
صوتك ! »

والفيلسوف يسأل : ماذا تقول هذه المرأة ؟ والتلميذ يترجم الأنشودة
ويتخاثر في سؤال الشيخ عن رأيه في هذه المناجاة العصرية ، على لسان
امرأة تخاطب رجلاً ، أو على لسان النساء يخاطبن الرجال
والشيخ يتأمل باسمًا ويجب تلميذه راضياً رضى القانطين المستسلمين :
« هو الغرب كله يا بني ماثل في هذه الأنشودة اللاهية : هو الغرب الذى
يأخذ من الحياة ما تعطيه ، ويطلب السرور ، ثم لا يسوم دنياه طلب الوفاء
والكمال ... هو الغرب الذى يأخذ كل شيء بقيمته وكل شيء على حقيقته ،

ثم يصقله ويحببه إلى نفسه ليسيغه ويستمرى مذاقه ، هو الغرب ذو النفس
الناطقة التي لا تقول كلمة في جدها ولا لهوها إلا جمعت فيها خلاصة ما عندها
من حضارة وأخلاق وفلسفة وشعور ... »

قال التلميذ :

أولست كل النفوس ناطقة ؟ ألا تفصح كل نفس عن دخيلتها في
غنائها ومناجاتها ؟

قال الشيخ : بلى ، ولكن شتان تعبير اللسان الذي يقول فيجمع حياته
فيما يقول ، وتعبير الثمرة التي ترى قشرتها فتري من لونها وتشم من رائحتها أنها
ناضرة أو ذاوية ، وصحيحة أو معطوبة : ذلك تعبير الفضل كله فيه للقائل ،
وهذا تعبير الفضل كله فيه للناظر ، وكلاهما تعبير ولكن المسافة بينهما كالمسافة
بين الحياة والجمود ، والحركة والركود »

فصاح التلميذ : اليوم سيدى الشيخ غربى وهو يفارق الغرب إلى الشرق !
فهل كان غربياً وهو فى بلاد القوم مستريح ؟ أم كتب على الإنسان أن
يحب ما يفارق ولا يزال ساخطاً على ما هو فيه ؟

فصمت الشيخ هنيهة ثم راح يمضغ بين شفتيه

ياماء دجلة ما أراك تلذلى شوقاً كما معرفة النعمان

اطمئن يا بنى . ما أنا إلى الغرب ولا أنا إلى الشرق . أنا إلى معرفة النعمان

فهل أن الأوان ؟

فأراد التلميذ أن يطاوله ويصرفه عما ورد على نفسه في تلك اللحظة من الحنين إلى وطنه ، وعاد يحاوره وكأنما يتحداه ليستثيره ويجنبه غاشية السوداء التي هو مقبل عليها :

أفى المعرة مثل هذه السفينة ومثل هذا المذيع ومثل هذا الصوت الجميل ومثل هذه الأعاجيب ؟

وكان المعرى قد ركب السفائن والطائرات ، وعرف مطايا الكهرباء ومطايا البخار ، وقال في كل منها قولة عارضة وهو يركبها أو يترجل منها . إلا أنها رحلة العودة ففيها خلاصة المقال ونهاية المآل ، فيما رأى من هذه الصنوف ولا إشكال ، فقال :

وما حاجة المعرة إلى سفائن البحار ؟ فيها السيارة وتحوم على فضاءها الطيارة ولو كان فيها بحر لكان فيها مثل هذه السفينة ومثل هذه الضوضاء قال التلميذ : وكلها من صنع الغرب الذى ما أدرى أيبرم به الأستاذ أم هو مشوق إليه ؟

قال المعرى : الآن فهمت ما تريد ... فهلا أنبأتنى يا بنى ماذا صنع الغرب من هذه الآلات يوم كنا نعيش حياتنا الدنيا فى المعرة ؟ لعمرك يا بنى ما صنعوها اليوم إلا لأنهم قد احتاجوا إليها ، وإلا لأنهم قد بنوا على أساس ما سبقها وهياً أسبابها من صناعات القرون الأولى . يا بنى ! لا تهولنك المظاهر ولا تعجبك كثرة الأعداد . فلعل مبتدع الشراع والدولاب أحذق من مبتدع

البخار والكهرباء ، ولعل القوس والسهم أبرع في اختراعهما من المدفع
والقذيفة ، ولعلمهم كانوا يعيشون على عهد الشراع خيراً من هذه العيشة ، ولعلمهم
كانوا يموتون على عهد القسي والسهام أكرم من هذه الميتة ! ولعل متعة
الحالم بالطيران أحب إليه من متعة الطائر بالجمان

قال التلميذ : ولا أحسبني مع هذا مخطئاً إذا قلت إنني لحت دلائل الدهشة
على وجه الأستاذ يوم ركبنا الهواء أول ما ركبناه

قال أبو العلاء : تلك دهشة تغنى عن دهشات

فسأل التلميذ : أيجب مولاي أن أفهم من هذا أن الكهرباء والبخار
وما صنع الإنسان منهما لا تستحق دهشة الحكيم كما يستحقها الإنسان الطائر
في الهواء ؟

قال أبو العلاء : لا أحب أن تفهم هذا ولا أكرهه ، ولكنني دهشت
لمعنى ما رأيت حين رأيته أول لمحة ، ثم أغناني ذلك عن دهشتي للمصنوعات
المكررة والظواهر المختلفة ... أتخسب أن من يدهش للطيران في الهواء خليق
أن يدهش لكل متحرك بالبخار والكهرباء ؟ أفمن شهد الشراع مرة خليق
أن يدهش له مرات كلما حركته ريح شمال أو ريح جنوب ؟ ذلك معنى واحد
في ألفاظ شتى ، أو ذلك جسد واحد في مختلف الثياب ، وحسبك أن تعلم أن
تسخير القوى التي يسمونها بالقوى الطبيعية مستطاع لتزول عنك الدهشة من
كل ما يستطاع من هذا الطراز

فاندفع التلميذ سائلاً : أفكل هذه الآلات اذن ليست بالفتح الجديد ؟
 أليس فيها ما يستوقف الحكماء من تاريخ بنى الإنسان فيما يرى سيدى الأستاذ
 فلم يمهله أبو العلاء هنيهة دون أن أجاب :
 « لا فتح ولا إقبال ! »

« وربما فتحت هذه الآلات لانسانك يا بنى فتحاً جديداً لو أنه سخر
 الآلات ثم أطلق نفسه من العقال ، أو لو أنه ملك نفسه يوم ملك آلات
 الأرض والهواء ... ولكنه سخر الآلات المصنوعة ليصبح شبيهاً بها ، ثم
 ازداد فى التسخير ليزداد فى الشبه . فهو أسير ما صنع ورهين ما ابتدع ، فان
 سميت هذا فتحاً فالله يفتح عليك ... »

ولم تخف لدعة السخر والمرارة فى كلمة الشيخ الأخيرة على فطنة تلميذه
 الملحاح فقال وهو لا يتعمد الاطالة فى الحوار :

أخال إنسان اليوم على جميع حالاته أطلق من آبائنا الأولين !
 فتمتم أبو العلاء هامساً : أ كذاك ؟

ثم انثنى يقول : لأمر ما كان الأوئل يروضون الحيوان وكنتم فى زمانكم
 هذا تروضون الجماد : كل قريبا إلى ما يروض ! وما أحسبكم تفلحون فى
 رياضة حيوان واحد بعد الذى راضه آباؤكم المتقدمون ، ولكنكم كلما قاربتم
 الآلات خرجتم من رياضتها فى كل يوم بمجديد

وتعمد التلميذ المناوأة الخفية فقال :

ومع هذا يغبط مولاي الجماد ويسبح الله الذي أعفاه من الطعام والكساء
ومن الرحلة والشقاء

ولم يرفض أبو العلاء هذه المناوأة بل جرى في مجراها فقال متمنيا أو
متهمكا على حد سواء

لو عوفيتم كما عوفى الجماد !

فأنس التلميذ إلى هذا التهم الرقيق وراح يسأل :

وهل عوفى الأقدمون ؟

قال أبو العلاء : كلا . على هذا مضيتم ومضى السلف ، إلا أنهم صبروا
حيث تضجرون ، وطلبوا من الدنيا دون ما تطلبون ، فإذا كانوا مثلكم في
الشقاء فلقد كانوا أقل منكم في الشكاة ، وإذا كان نصيبهم كنصيبكم من الخير
فالذى يطلب الألف ويجد المائة محروم ، والذى يطلب العشرة ويجد الخمسين
مجدود لا تحسبه من أهل الحرمان .

أقصى المغرب

قاتل الله المجاز !

كان هذا أول ما فاه به المعري لتلميذه بعد أن علم سبب الكارثة التي
أودت بمئات النفوس من ركاب السفينة . إذ كانا يركبانها ويتحدثان فيها
ذلك الحديث المروى في المقالة الماضية ، وكانا قد بلغا شواطئ الأندلس حين
وقعت الواقعة . وما هي الواقعة ؟ قذيفة أطلقتها على السفينة غواصة من غواصات
الثوار فهبطت بها إلى القرار ، ثم نجا المعري بعصمة الخلود ، ونجا تلميذه ببعض
المجهود ، وهما الآن على متن سفينة أمريكية تمخر بهما بحر الظلام ، إلى بلاد
العم « سام »

ومال التلميذ إلى الأستاذ يسأله :

أعلمت يامولاي ما سبب الكارثة ؟

فقال الأستاذ : وما سببها ؟

قال : أنت يامولاي !

قال : ويحك ! وكيف أكون أنا سبياً لإغراق سفينة أنا راكب فيها !

أهي دعوة صائبة ؟

قال التلميذ : بل هو مجاز خائب . . . كتب بعض الصحف أن سفينة من السفن تفارق الشواطئ الأندلسية وعليها ذخيرة عربية نفيسة . . . ومن تكون الذخيرة العربية النفيسة غير أبي العلاء ؟ فلما تواترت الأنباء بهذا المجاز النفيس حسب الثائرون على حكومة الأندلس أن هذه الحكومة تبعث بالتحف العربية الغالية إلى بلاد أجنبية ، لتودعها أو ترهنها هناك . فطاردتنا وأغرقتنا لتحرمها هذه الذخيرة ، أو تستولي عليها إذا أدركتها قبل أن تبتلعها اللجة ، فغرقت السفينة وهلك من هلك من جراء أبي العلاء

قال أبو العلاء : قاتل الله المجاز ، بل هو الذي أهلك القوم كما أهلك من قبلهم أمماً خالية أغرقها المجاز في بحار من الكلام ، وأنا مع ذلك القاتل :

لا تقيد على لفظي فاني مثل غيري تكلمى بالمجاز

نعم وأنا القاتل أيضاً :

بنى الدهر مهلاً إن ذمت فعالكم فاني بنفسى لا محالة أبداً

ثم قال : و إلى أين تمضي سفينتنا الآن بالذخيرة العربية النفيسة ؟ أتراني سأغرقها مرة أخرى ؟

قال التلميذ : بل إلى بر السلامة إن شاء الله . . . إلى بلاد العم سام !

قال أبو العلاء : وما عسى أن نشهد هناك غير ما شهدنا ؟ أو نسمع هناك غير ما سمعنا ؟

قال التلميذ كثيراً يامولاي . . . سنرى قبل كل شيء ملكاً عظيماً على الطريقة الأمريكية .

فتمهل أبو العلاء قليلاً ثم قال : أرانى سأقضى منك ديون السؤال كلها فى هذه الرحلة . فما هى هذه الطريقة الأمريكية التى نسمع بها فى كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟ وكيف يكون الملك العظيم ملكاً عظيماً على هذه الطريقة .

قال التلميذ : بالامتحان والكشف الطبى ، كأنه موظف فى الخدمة اليومية !
... فهذا الرجل الذى يحكم الدولة العظمى فى الديار الأمريكية قد كان مشلولاً فى كهولته ثم تقدم إلى الشفاء ، فلما أذاع خصومه أنه لا يصلح للحكم عرض نفسه على الأطباء الثقة ليشهدوا له بصحة العقل وصحة الضمير . وقد شهدوا له وجاز الامتحان عند أبناء وطنه فانتخبوه . أليست هذه طريقة أمريكية فى الحكومة كالطرق الأمريكية فى الصناعة والتجارة ، وفى كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟

قال أبو العلاء : وهل أفلح الرجل وصدق الأطباء ؟

فأجاب التلميذ : نعم أفلح غاية ما يستطاع الفلاح ، وعالج الشلل فى قومه

كما عالجه فى جسمه

فأدركه أبو العلاء متهاثراً وصاح به : غرقه أخرى يا بني !! ومجاز آخر
يوشك أن يرسل بالسفينة إلى القرار . . . أفصح يا بني ودعنا من المجاز !
فاستضحك التلميذ ، ولكنه شغل بالجد فيما هو فيه عن سخريه الشيخ
وارتيا به ، فطفق يقول :

لقد صعد « روزفلت » العظيم إلى كرسى الرئاسة والأمة الأمريكية
كالجسم الذى له نصف محتقن بالدم الغزير ونصف منزوف مشلول لقلة الدم
فيه ، فكان كالقلب الذى تنتظم به دورة الدم فى جميع العروق ؛ وأخذ من
النصف المحقون للنصف المشلول ، فدار الدم دورته فى جميع العروق ، وأوشكت
الحركة أن تعود إلى جميع الأعضاء

قال أبو العلاء : أترأى أثار الفقراء على الأغنياء كما صنعوا فى بعض الديار
الأوربية ؟

قال التلميذ لو صنع ذلك يامولاي لكان من الفاشلين ، فان هذه
البلاد على تقدم الصناعة فيها وكثرة الصناع بين أبنائها تعتمد من ثورة الفقراء
على الأغنياء بشتى العواصم ، وتحتذى منها بكثير من الحصون :

منها يامولاي إن باب الغنى مفتوح لكل فقير مستطيع ، فكل فقير
فيها يمتلئ نفسه بالثروة بعد حين ، ولا يشعر باحتكار الثروة فى أيدي طائفة من
الناس تتوارث المراتب وتتوارث الأموال ، فمن هنا يحسب الفقير أنه يثور
على نفسه أو يثور على أمله حين يثور على الأغنياء

ومنها أن الأمريكيين قوم ورثوا المغامرة والمراهنة من أجدادهم الأولين الذين غامروا بالهجرة إلى المغرب المجهول منذ قرون ، فمن شغفهم بالمغامرة والمراهنة أنهم يحبون الانتخاب وينتظرون السباق فيه بين الأحزاب ، ولا يلجأون من أجل ذلك إلى الإضراب والاعتصاب

ومنها أن الزراعة عندهم توازن الصناعة ، وأن الريف بينهم يوازن المدينة وأن ازدهام الحواضر لا يخلو القرى من الحارثين الحاصدين ، وهؤلاء أقرب إلى جانب الاستقرار منهم إلى جانب الثورة والثوار

ومنها أن حب الدين فيهم قديم ؛ لأن آباءهم الأولين كانوا أناساً متنطسين متطهرين تقموا معيشة الفساد في أوربا فهجروها إلى الغرب متعفين متورعين وإنما يثور الإنسان على الأرزاق حين يثور على الأقدار .

قال أبو العلاء : أرحتني من الأستاذية في هذه الرحلة المباركة أراحك الله ، غير أنني أراك قد ذكرت لنا ما منع رئيس القوم أن يثور بالفقراء على الأغنياء ولم تذكر لنا ما صنع لعلاج ذلك الجسم المحقون المشلول . . . أترأه رجع فيه إلى الأطباء ؟

قال التلميذ : عفواً مولاي . أحسبها غلطة من غلطات الحداثة في الأستاذية ، أو أحسبها أسلوباً مبتكراً على الطريقة الأمريكية ، ومن كان أستاذاً لأبي العلاء فمغتفر له ما شاء من إهمال وإبطاء

فاعلم يا مولاي إذن أنه أجزل من الأجرة والوقت للصانين ، وأكثر

من الأرزاق للشيوخ والعاطلين ، فأكثرُوا من الاتفاق وراجت بهم
الأسواق .

فسأل أبو العلاء : ومن أين جاء بالمال ؟

قال التلميذ : بعضه من أرباح الأغنياء والفقراء ، وبعضه من الضرائب
على رءوس الأموال .

فعاد أبو العلاء سائلاً : وكيف رضوا بما فرض عليهم ؟

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين ، فان كثرة البيع
والشراء خير من كساد السلع والخوف الدائم من ثورة العاطلين والمطرودين ،
والمال الذى يذهب ويعود خير من المال الذى يفسده الركود

فسأل أبو العلاء مرة أخرى : وهب التجار لم يخرجوا من بضائعهم إلا
بمقدار ، فأمنوا بذلك مغبة البوار ، وقنعوا باعتدال الأسعار . فهل تزن
الأرض غلاتها ، وهل تحكم الحكومة على نباتها ؟

قال التلميذ يقرض أستاذه العجيب : ما أعجبك يامولاي من أستاذ وما
أعجبك من تلميذ . إنك لتحسن السؤال كما تحسن الجواب . فاعلم إذن
يامولاي أن الأرض قد أخرجت ما شاءت وأن الحكومة قد أتلفت منه
ما شاءت ، وهو النصف من جميع الغلات

قال أبو العلاء : وهل رضى الزارعون ؟

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين ، ثم حمدوا المغبة
بعد حين .

وانطلقت السفينة في عباها وأبو العلاء يقول وكأنه يحدث نفسه ولا
يعنى تلميذه بما يقول :

لئن نجح الرجل نصف نجاح لقد نجح في حقيقة الأمر كل النجاح ،
فما من الصواب أن نسوم إنساناً واحداً كل الصواب ، وأن نمضي من حوله
كلنا مخطئين .

أقصى المشرق

قل إنهم يحبون العجلة ! قل إنهم يكرهون الوقت ! قل إنهم حائرون فيما يحبون وما يكرهون . اما انهم يحبون المال وكفى فان من يحب المال للمال لا يتحرك ولا يعيش ، بل يجلس كما تجلس العجوز على القدر المدفونة ، أو كما يجلس الصيرفي على خزانة الذهب ، وهؤلاء لا يجلسون جلسة العجوز ولا جلسة الصيرفي ، ولكنهم يتحركون ويعيشون

كان ذلك حكم المعري على الأمريكيين أو قل « حكم المعري للأمريكيين » وهو خارج من بلادهم ، وكان قد حضر مع تلميذه عيد الاستقلال في عاصمتهم ورأى بذخ القوم وإسرافهم في بذل أموالهم لأزجاء أوقاتهم والحفاوة بذكرياتهم ، فلما برحا الشواطئ الأمريكية من أقصى المغرب واستويا على مكنهما في السفينة يعرضان ماعبرا به وعبر بهما ، ويجمعان ماتفرق من الوقائع والمشاهدات قال التلميذ : هذه أمة تحب المال ولا تعمل إلا للمال ، فأبى المعري أن يجارى تلميذه في حكمه ، وقال عن القوم ذلك المقال

ولا ندرى لم لم يطب المقام في بلاد الشمس المشرقة لرهن المحبين كأنما كان هناك في حبس أشد عليه من محبسيه .

فكان في أرض « نيبون » يتأفف ويتبرم من كل شيء ومن غير شيء ، ولم يزل مع تلميذه على حذر وامتناع حتى هجرا أرض نيبون إلى أرض الصين ، وأقاما فيها برهة بين الفتن والثورات والحجاعة تارة والقحط تارات ، ولكنهما كانا أقرب شيء إلى راحة البال والإقبال على شهود الأحوال ، لأنهما كانا يشهدان في الصين جهداً يسر الناظرين أن يبلغ تمامه . أما الجهد الذي كانا يشهدانه في أرض نيبون فقل أن يكون في تمامه سرور للناظرين ، ولا سيما الحكماء

قال التلميذ يستغفر أستاذة للكلام :

أوليس القوم في أرض نيبون على جانب من الشجاعة عظيم ؟ قال المعري : بلى ! إن كنت تعنى شجاعة الغريزة ولا تعنى شجاعة النية والإرادة

قال التلميذ متجاهلاً : وما شجاعة الغريزة وما شجاعة النية والإرادة

يا مولاي ؟

فأجابه الحكيم غير متأفف ولا متبرم : ان الشجاع الحق هو من يعرف الخطر ريخشا ثم يغلبه بعزيمة هي أعظم من الخطر وأعظم من الخشية . أما الشجاع الذي يقتحم الخطر لأنه مدفوع إليه بعادات الأقدمين وسنن الآباء والأجداد فذلك أسير لا فرق بينه وبين من يقتحم النار مسوقاً إليها بسلسلة

من الحديد ، ولا فرق بينه وبين الأسير الذي يقدمه أسروه في الطليعة وهو لا يملك الفرار ، وقد توجد هذه الشجاعة في الحيوان كما توجد في أبناء آدم ، فهي من أصول لا ارتفاع فيها ولا تعلق لها بالتكليف والضمير

وقال التلميذ : لو أن الأستاذ قد شهد أسراب الطير وهي تعبر البحر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم منها من يسلم ثم تعود إلى الهجرة ولا تخاف الموت ولا تعرف ما هو لحسبت أنه يعنى هذه الشجاعة حين يذكر شجاعة الغريزة وشجاعة الحيوان

فقال المعري : ما رأيت هذه الأسراب ، ولا أحسبنا في حاجة إلى رؤيتها لنعرف أن الشجاعة التي تتعلق بالعادات الموروثة غير الشجاعة التي تتعلق بإرادة المريد ، وكل من شهدنا في أرض نيبون من باقري بطونهم وباخعي أنفسهم فانما هم قالب واحد لا يختلف باختلاف البيئات ولا باختلاف الأفراد ، وليست هكذا تكون الصفات التي مرجعها إلى مزية في الإنسان ومزية في الخلق والتكليف

قال التلميذ : أو ليس القوم خيراً من هؤلاء الصينيين الذين ترضى عنهم ولا تضيق ذرعا بعشرتهم ومراقبة أحوالهم ؟

قال المعري : أما إن أردت أنهم أفلحوا حيث أخفق الصينيون فأنت على صواب ، وأما إنهم يفلحون هكذا لو كانت أرضهم هي أرض الصين وأحوالهم هي أحوال الصينيين فذلك هو البعيد .. إن القوم قد أخذوا قديمهم من الصين

وأخذوا حديثهم من الغرب ووجدوا في عزلتهم من وراء بحرهم ، وعلى خصاصة عيشهم ، متسعين من الوقت يأخذون فيه ما يأخذون ويدعون ما يدعون ... فان أردت الانصاف فضعهم حيث وضعت الدنيا أبناء الصين وأنت ترى الفرق بين الأمتين !

قال التلميذ : يعنى الأستاذ الفرق بين المنتصرين والمنهزمين ؟

قال المعري نعم : وما يدريك لعل أهل نيبون يخدمون أهل الصين بهذه الهزيمة وهم لا يشعرون ؟ لقد كان هؤلاء المنهزمون شتيتاً من الخلق فجمعهم الهزيمة فأصبحوا أمة تنضوى إلى لواء واحد ، فاذا بالمنتصرين يخافونهم بعد خمس سنوات تجردوا فيها لاتخاذ الأهبة وتوحدوا أو كادوا يتوحدون ، فكيف يكون شأنهم لو تجردوا لاتخاذ الأهبة متوحدين خمسين سنة لا خمس سنوات ، ومن ذا الذى يهزمهم فى المشرق أو فى المغرب لو تهيأ لهم الوقت كما تهيأ لأعدائهم المنتصرين ؟ علم الله لولا أن أهل نيبون يخافونهم ويفزعون من غدهم لما عاجلهم بالعدوان ، وما أخلهم مع ذلك آمنين عقبى الأمور .

قال التلميذ : من يسمعك يا مولاي يحسبك من دعاة « الكومنتاج »

أو من غلاة المتشيعين لأنجيل « سون ياتسين »

ولو كان أبناء نيبون قد أساءوا استقبالك لزعمت أن فى نفسك إثارة من سوء ما استقبلوك ، ولكنهم جمعوا لك المسلمين فى عاصمتهم واستمعوا لك فى

معبدهم ومسجدهم ، وصحبوك وبجلوك ، ومللتهم ولم يملوك ، فأعجب العجب أن
تبغضهم هذه البغضاء وأن تألف الصينيين هذه الألفة ...

فقاطعه الحكيم قائلاً : لعلمهم أساءوا من قبل هذه الحفاوة !
فابتدره التلميذ مستغرباً : كيف أيها الحكيم ؟ أيأبى مولاي الكرامة
وهو كريم ؟ !

فأجاب المعري : نعم أباهما إذا كانت تجارةً وكنت أنا فيها سلعة من السلع
المعرضة أو ذريعة من ذرائع الترويج والخديعة ... هؤلاء الناس لم ينشئوا
مسجدهم لله ولا للعبادة ولا للمسلمين ولا لأبي العلاء ، ولكنهم أنشأوه للبيع
والتجارة ، وما نحن بالسلعة الرخيصة في أسواق التجار

فقال التلميذ متسائلاً : وحفاوة المسلمين في الصين ما شأنها وما شأن
التجارة والكرامة فيها ؟

قال أبو العلاء : تلك حفاوة قريب بقريب . وأظن المحتفين بنا هنا قد
كانوا مسلمين منذ قرون !

فصاح التلميذ : كأنما فوجئ بكلام لم يخطر له على بال :
تظن يا مولاي ؟ لقد حسبت أن عندك من خبر المسلمين هنا ما ليس
عندنا ، وإننا نسمع من تاريخهم لديك فوق ما سمعنا !
قال : وما سمعتم ؟

قال : سمعنا حديثاً يشبه الأحاجي والأساطير ... سمعنا أنهم دخلوا الصين
قبل زمان مولاي بعهد طويل ، وإن قتيبة بن مسلم الباهلي قد غزا أطرافها في

عهد بنى أمية ، فكتب إليه ملك الصين أن ابعث إلى رجلا شريفاً يخبرني
عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جمال وألسن وبأس وعقل
وصلاح ، وكان منهم هيرة بن مشمرج الكلابي فقال لهم : إذا دخلتم عليه فأعلموه
أنني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أطا بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم .

فقال لهم ملك الصين : قولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة أصحابه ،
وإلا بعث إليكم من يهلككم . قالوا : كيف يكون قليل الأصحاب من أول
خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فان لنا
أجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ... لسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف
أميرنا ألا ينصرف حتى يطا أرضكم ونختم ملوككم وتعطوا الجزية . قال ملك
الصين : فأنا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث إليه بعض
أبنائنا فيختممهم ونبعث إليه بجزية يرضاها . ثم أجازهم وبعث بما ذكر إلى قتيبة
فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ، وأنشد شاعر في ذلك :

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم للصين أن سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشى الكريم هيرة بن مشمرج
أدّى رسالتك التي استدعيتها فأناك من حنث اليمين بمخرج
فأصغى أبو العلاء ثم قال :

ولا كل هذا سمعنا ! فلا تعجب أن يكون المحدثون أعلم بالزمن القديم

من الأقدمين .

زعيم الصين

جلس الشيخ في فرضة الصين الكبرى « شنغهاي » وإلى جانبه تلميذه
يترجم له الخطاب الذي ألقاه زعيم الصين الكبير شيانج كاي شيك عن السيد
المسيح صلوات الله عليه

وكان الشيخ - وهو من المعنيين بأمر الأديان والمشغولين بعقائد ذوى
الآراء - قد سمع أن الزعيم الصيني تحوّل عن عقيدة آباءه وأجداده مع حرص
أهل الصين على تراث الآباء والأجداد ، وآثر المسيحية كما آثرها من قبله
أستاذه وأستاذ الصين الحديثة « سون ياتسين » ... فعجب لهذا التحول
واشتاق أن يعرف أسبابه وبواعثه من السياسة أو من خطرات الضمائر وبدوات
النفوس . فلما أنبأه تلميذه أن الزعيم يتكلم عن السيد المسيح أصغى إليه وقال :
أسمعني ما يقول !

وانطلق التلميذ يترجم ما عدده الزعيم من أسباب حبه المسيح وإشاره

عقائد النصرانية وهى : أن المسيح كان قائد ثورة وطنية نهض بأمته فأحيائها بعد أن أمتها طمع الرومان وعسف الطغاة من الأمراء والكهنة ، وأن المسيح كان قائداً لثورة الإصلاح الاجتماعية كما كان قائداً لدعوة النهضة السياسية ، فألقى على الفساد والمفسدين وبشر بالطهارة من الرجس والرجاء فى الخير والاستقامة وأن المسيح كان مع دعوته القومية والاجتماعية داعياً إلى الثورة الدينية متمرداً على الشعائر البالية والخرافات الموروثة والرياء الشائع بين أئمة الدين وأخباره ، وإنه قد استطاع ما استطاعه وهو رجل فقير من بيت فقير فى بلد فقير ، فلم يكن وارث ألقاب وأموال ، ولم يكن سليل أخبار وأقطاب ، ولا كان له مظهر من مظاهر الدراسة الخاوية ولا التعليم الموقر بالنفائات والقشور . بل كان صاحب قلب كبير يستوحى العناية الربانية ويستلهم الفطرة السليمة ، ويروى عن صفحات الكون ولا يروى ما حشيت به الأوراق وامتلأت به قاطر الهياكل

قال المعرى : أرايت ؟

قال التلميذ : ماذا أيها الحكيم !

قال إن الرجل قد دان بالمسيحية لأنه قد آخى بين حياته وحياة المسيح ، واعتد نفسه مسيحاً جديداً قام من سلالة الفقراء ومن لا يُحسبون بين العلماء واختاره الله لإحياء الصين بما ابتغته فيها من ثورة قومية على الطغاة والمغيرين ومن ثورة اجتماعية فيما سماه « الحياة الجديدة » وأوصى فيه بالتطهر والاستقامة

والفداء ، ومن ثورة دينية فيما أنكره على الكهان والشيوخ ، فهو قد آمن
بالمسيح لأنه يؤمن بنفسه ، وهو قد أبغض الرومان لأنه يبغض « المانشو »
واليابان وزمرة المتجربين بالأديان .

قال التلميذ : أو تأذن أيها الحكيم بإضافة قليلة

قال المعري : أو كثيرة !

قال التلميذ : لعله آمن بالمسيح لأنه آمن بنفسه وآمن معها بزوجه

فسأله المعري : وما ذا تعنى !

قال أعنى أن « شيانج كاي شك » يتيم تكفلت به أمه وأنفقت عليه
من سم الخياط ومن فضل الطوى والقناعة ، ورجت فيه الخير يوم يؤس منه
الأقربون ونفضوا الأيدي من حاضره ومؤتلف أمره . وما زال
يستمدّها العون حتى بعد أن كبر وتولى القيادة وباء بالهزيمة وفر إلى اليابان
وهو لا يملك قوت أيام . فللمرأة شأن أى شأن فى قلبه وعقله ، وخلق بمن كان
كذلك ثم رزق الزوجة الصالحة الرشيدة أن يركن إليها ويطمئن إلى عطفها
وخلوص طويتها ، ويحسب الصلاح فى صلاحها ، والدين فى دينها والإيمان فى
إيمانها ، فإذا كانت مسيحية فما أقربه مع الأيام أن يتسلل إلى الإيمان بالمسيحية
وإذا كانت من أسرة قديرة على المذهب المسيحى فما أولاه أن يعيش فى كنف
الأسرة وأن يشعر بشعورها ! ولقد كانت لأستاذ « سون ياتسين » زوجة
مسيحية فحسن على يديها إيمانه بدينها . وما كانت زوجة الأستاذ العظيم إلا

شقيقة زوجة المريد العظيم . فما أعجب هذه الأسرة التي أنجبت بنتين يدين
بدينهما زعيمان من زعماء الصين كيران ، ورجلان من رجال العالم خطيران ،
عدا من أنجبت من أبناء وبنات كلهم علم من أعلام هذا الجيل في هذه البلاد؟
قال المعري : لا عجب إذن أن يؤمن الرجل بالعقيدة التي توافق إيمانه
بنفسه وإيمانه بزوجه وإيمانه بأستاذه ، وإيمانه برجاء بلاده

فعاد التلميذ يسأل : وما رأى الحكيم في رجاء بلاده ؟

قال المعري : إن نقصت مساحات أرضها فقد تزيد قوة نفوسها ، وإن
تقاربت مسافاتها وأطرافها فقد تتقارب علاقات سكانها وأواصر أبنائها ، وإن
غلبوها بالسلاح فقد تغلبهم بالكثرة ، وإن طال الزمن على رجائها فما هو بأطول
من أزمانها في القنوط والجود . . . هي ناجحة فيما أرجوه ويرجوه لها المنصفون
قال التلميذ : تلك بشرى يفرح بها القوم إذا سمعوها فهل من وصاة
أوصيهم بها ، وهل من آفة أحذرهم عواقبها ؟

قال المعري : آفة القوم أنهم بين الحضر والبادية ، فلا هم جادون في الحضارة
ولا هم جادون في البداوة . فليجدوها في إحداها فذلك خير من حيرة المنبت
لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى

قال التلميذ : لكأنك يا مولاي قد عشت في الصين منذ عشت في الدنيا . . .
لو رأيت بناءهم لرأيت قصوراً في أشكال خيام . وذلك شأن كل « بناء » في
الصين .

زهدان

شتان زهد الهند وزهد نجد

ذاك زهد السامة من الوفر والاغراق والابتذال ، وهذا زهد الأنفة في

وجه الضنك والضرورة

زهد الهند زهد الذي اكتظ من صنوف المائدة حتى عافها وأعرض عنها

وزهد نجد زهد الذي لم ير المائدة وأنف من مذلة الحاجة إليها . . .

كان هذا حديث المعري لتلميذه وقد وصلا إلى جدة وقفلا من مدن

الحجاز ، بعد طواف طويل في الصين والهند وفارس والعراق .

وكان التلميذ يسأل أستاذه عن شطف النجديين من أتباع عبد الوهاب ،

إذ يحرمون على أنفسهم كل ما يعز عليهم وجوده في الصحراء النجدية . وهو

ينتظر رأى المعري في هذا الشطف ، وقد علم أنه أخذ نفسه بمثله أيام الحياة .

فلما قال المعري ان القوم في الصحراء يزهدون زهد الأنفة في وجه

الضرورة فهم أن حكيم المعرة يستكبر أن يساويه في زهده مئات وألف ،
وأحب أن يحسب القوم مضطرين غير مخيرين ، أو مسوقين غير سائقين ،
فرجع إليه سائلاً :

أفترى كل محتاج زاهداً فيما يحتاج إليه ، آتفاً من الاقرار بالحاجة
والحرمان ؟

قال الشيخ كلا . إنما تفعل ذلك الأمم التي لها غزوة وليست لها وفرة .
فهى إذن تفرض على نفسها القناعة وتنفض عنها شعور المذلة ، ولو ضعفت
ولانت لجمعت على نفسها حرمان الفقر وحرمان الذل والاستكانة ، فترى أنها
محرومة وأنها دون من يستمتعون بالخير والبذخ والرفاهة ، ولا ترى كما يرى
هؤلاء النجديون أنهم محرومون وأنهم مع ذلك خير من المستمتعين !
قال التلميذ : لا غرو . إني لأسمع المعري الهندي !

قال الشيخ : ويحك . هل عدنا إلى قديم هذه الدعوى ؟ فمن ذاك
المعري الذي ولد في الهند أو الهندي الذي ولد في المعرة ؟

قال التلميذ : هو الذي قال :

غدت مريض العقل والدين فالفني	لتسمع أنباء الأمور الصالح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً	ولا تبغ قوتاً من غريص الذبائح
ولا بيض أماتٍ أرادت صريحه	لأطفالها دون الغواني الصرائح
ولا تفجعن الطير وهي غوافل	بما وضعت فالظلم شر القبائح

ودع ضَرْبَ النحل الذي بكرت له
فما أحرزته كي يكون لغيرها
مسحتُ يدي عن كل هذا فليتنى
بني زمني هل تعلمون سرّاً
سريتُم على غي فها اهتديتم
وصاح بكم داعي الضلال فما لكم
متى ما كشفتم عن حقائق دينكم
فان ترشدوا لا تخضبوا السيف من دم
ويعجبني دأب الذين تراهبوا
وأطيب منهم مطعماً في حياته
فما حبس النفس المسيح تعبدّاً
كواسب من أزهار نبت فوأمح
ولا جمعته للندي والنأح
أبهت لشأني قبل شيب المسأح
علمت ولكني بها غير بأح
بما خبرتكم صافيات القرائح
أجبتُم على ما خيَّلت كل صأح
تكشفتم عن مخزيات الفضأح
ولا تلزموا الأميال سبر الجرائح
سوى أكلهم كد النفوس الشحأح
سعاة حلال بين غاد ورائح
ولكن مشى في الأرض مشية سأح

أليس في بعض هذا ما ينسب الرجل إلى أمة الهند ودين البرهمنين ؟
ألست ياسيدي قد رضيت أن تهلك ولا يهلك فروج من بنات الطير
لتتداوى بالسليق من لحمه ومائه ، وقلت لهم : استضعفتموه فتداوitem به ،
ولو كان شبل أسد لما وصفتُموه ؟! . ﴿ انظر صورة الغلاف ﴾

فجرى السخط في مجراه من قلب الشيخ الكظيم ... ومن مجراه في قلبه
أن ينقلب هزواً كلما أوشك أن ينفجر غضباً . وقال : لو صح هذا لما بقيت
أمة في الأرض إلا نُسبتُ إليها . ما لكم لا تصدقون أنها الفاقة وإنها الرحمة ؟

أبلغ من سوء ظنكم بأنفسكم ألا تفرطوا في أكلة إلا خوفاً من غضب
معبود؟ وماذا يضيرني من برهما إن غضب وما هو بصاحب نار ولا بصاحب
نعيم؟ ومالي ولدين أناس يؤمنون بقداسة بعض الحيوان ونجاسة بعض
الإنسان؟ ذلك لا يلمسونه من هيبة ووقاية وهذا لا يلمسونه من كبر ووزارة!
ويحك! أينسب إلى الهند من يحقن الدماء؟ فما قولكم في الحسام وهو من
الهند في المعادن والأسماء؟

ثم ماذا تقولون فيما قلت :

وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به يحمل الحسام
وليس الخير في وسع الليالي فكيف نسومها ما لا يسام؟
إنني إذن لمن أتباع صاحبكم نيتشه؟ أو من أتباع أصحابه الفاشيين؟
ومالك لا تحسب على انكارى لزعم الهند حين أنقض ما يقولون :

يقولون إن الجسم ينقل روحه إلى غيره حتى يهذبها النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وأشفق التلميذ أن تكون غضبه فسكون . وقد علم أن صاحبه أصعب
ما يكون مراسا إذا سكن بعد غضبه . فيومئذ لا كلام ولا حوار ولا جواب
غير الوجوم والازدراء ، ولكنه إذا انتقل من ثورة إلى ثورة أو تدرج من
سخرية إلى فكاكة . ففي استطالة الحديث معه رجاء

قال التلميذ : أمن النسبة إلى الهند ينفر مولاي كل هذه النفرة ؟ فمن

قال إنه من الفرس كيف يجاب ؟ ومن زعم أنه من المجوس ماذا يسمع من زجر وعقاب ؟

قال المعري : يقال له صدقت وبررت ، وانه مع ذلك لعل دينهم لأنه يعجب منهم إذ يقول :

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر
فمن التقية أن ينكر الانسان ما به يدين . وأن يكون نكرانه علامة اليقين ... أليس كذا ؟

وتلطف التلميذ اللبق في نقل الحديث إلى فارس والفرس وما كان فيه وما يكون ، وتذاكرا ما مر بهما ومرا به في تلك البلاد ، فسرى عن الشيخ بعض ما اعتراه مل غضب وامتعاض لنسبته إلى البراهمة والمجوس . وضحك الشيخ وتلميذه كثيراً حين ذكرا ذلك الكرسي الذي كان يجلس عليه بعض الشاهات — عند قضاء الحاجة — فيعزف بالنشيد الملكي تحيةً للجالس عليه !! وقال الشيخ : حسنا صنع عاهل الفرس الجديد أعانه الله على ما تصدى له من خير وتهذيب... انه أراح أمته من هذه المراسم وهذه التفخيمات التي أفسدت عليهم ما أفسدت ، ونسوا كل شيء ليذكروها وحدها حتى حين ينسى الانسان كل تفخيم وتبجيل ... إن المراسم آفة هذه الأمة الطيبة الرضية ، فلا أدب لهم ولا علم ولا دين ولا شريعة إلا وفيها آية المراسم ظاهرة ،

وتحية المراسم ناطقة ، وديوان المراسم معقود ومشهود . ولئن خلصوا منها لقد
خلصوا من قيود تحبس الرأس قبل الأعضاء والأقدام

فسأل التلميذ : وماذا بقي منها فيستحب لهم الخلاص منه ؟

قال المعري انهم يقتدون بالأمم الكبرى في ازيائها وشعائرها ، وإن
أخوف ما نخاف عليهم أن يحسبوا القوة والمنعة في هذه الأزياء وفي هذه
الشعائر ، فيتقليدوا بها من جديد ويخلصوا من تقليد إلى تقليد ، ولئن هداهم
عاهلهم السديد في مسعاهم المجيد ، لقد بلغ بهم ما لم يبلغه الأكاسرة ولا
المهرازة الأولون

في مصر

على مقربة من سيناء قال حكيم العربية لتلميذه كأنما هو الذي يقوده :
هذه هي البادية !

قال التلميذ : أوقد عرقها ؟ قال كيف لا أعرفها ... وأن الشمس لتتغير
وما غير الله البادية منذ خلقها ، ولا يغيرها حتى يطويها مع الأرض أو السماء !
قال التلميذ : فعلى اليمين بيت المقدس وعلى الشمال أرض مصر ، فأيهما
يؤثر الأستاذ بالزيارة

وكان شيخنا قد سمع شيئاً عن متاعب فلسطين والشرق العربي ، وسمع
شيئاً عن عجائب مصر .

فأنشد :

أما الحجاز فما يرجى المقام به لأنه بالحرار الخمس محتجز
والشام فيه وقود الحرب مشتعل يشبه القوم شدت منهم الحجز

وبالعراق وميض يستهل دما وعارض بلقاء الشر يرتجز
ثم قال : لا أدخل أرضاً يجلى عنها العرب ، فلندخل مصر آمين .
قال التلميذ : إن أبيت أن تدخل أرضاً يجلى عنها العرب فهلا بعثت إليهم
بتحية أو نصيحة !

قال الشيخ : النصيحة لهم أن يصابولوا بالقوة والمال من يغلبنهم بالقوة
والمال ... فهم هم الظافرون ، قصر الزمان أو طال .
وسأله التلميذ : ومن أين لهم بقوة ومال ؟

قال : من العزم والاباء .. من أبى ما هو فيه استمد العزم من إياه ،
وجاءته القوة والثروة إلى موطن قدميه .

قال التلميذ : وهبهم بلغوا منهما جهد الطاقة أفيلغون منهما يا مولاي مبلغ
الدول الكبار ؟

فأجابه الشيخ : بل يبلغون منهما ما يتعب الدول الكبار ، وحسبهم أن
يتعبوها فيستريحوا ، أو يرجعوا إلى حال خير من قبول الضياع والفناء .

* * *

ودخلا مصر قفزيا أياماً بين ترحيب وتسليم ، وبين ربوع وآثار ، وسأل
الشيخ بلسان أبي الطيب الذي كان يقص له ويستعيد شواهد :
أين الذى الهرمان من بنيانه ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟
ثم أنشد :

تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع
ثم قال : أشهد وأنا بينهما أنهما لم يفنيا ولم يتبعا . فما أعظم يقين أبي الطيب
بفعل الزمن ودولة الفناء .

قال التلميذ : ما هو بأعظم يقيناً بالزمن وفعله والفناء ودولته من القائل :
زحل^١ أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريح من حدثان الدهر مظف وإن علت في انتقاد !
فرد عليه الشيخ خاشعاً وهو يجمع بين شفتيه : نعم . وتهون الأعمار
عند ذاك ويهون الخلود .

واسترسل التلميذ في نعمته الأولى فقال : هذا الحد^٢ أبى أن يصير لحداً
مراراً ، وأبى أن يضحك من تراحم الأضداد .
قال الشيخ وهو في جمجمته الأولى : لقد دخله الأحياء فأبى أن يكون
لحداً مرة بله المرات ، وضحك من صاحبه الأول قبل أن يضحك من أضداده .
وإني والله لأسأل عن هذا الطود المشيد كما سألت عن الورقاء :

أبكت تلکم الحمامة أم غدت على فرع غصنها المياد
فما أدري هنا أهو عنوان غلبة الموت أم عنوان غلبة الحياة ... إنما هو
على الحالين عنوان شقاء الإنسان ، وعيث الطغيان

وعاود الشيخ وجومه على أشد ما يكون بين أطلال الفراعنة ومروج
وادي النيل ، وإنه ليروض نفسه على إقامة أيامٍ إذ حانت له الطرفة التي سماها

أعجب العجائب في بلاد العجائب ، فانتوى الهجرة من قريب
كان ذلك في ناحية من الصحراء وقد تردد عليه رجل من كتاب الصحف
فسأل الشيخ تلميذه : ماذا عساه يريد ؟

قال التلميذ : إنه يعتذر

قال ومم الاعتذار ؟

قال : إن الرجل لكاتب المقال الذي أطلعك عليه تفكّه وعبرة يوم
وصلنا إلى هذه الديار

قال : تعني الرجل الذي نعى على حكومة هذا البلد أنها احتفلت بمن سماه
إمام الملحدين وشيخ الكافرين ، وأنها من أجل ذلك خليقة باغضاب المسلمين
والمروق من حظيرة الدين .

قال التلميذ : هو بعينه .

فعجب الشيخ وسأل : وما اعتذاره اليوم ؟

قال : اعتذاره أنه سيلقى عليك المقال الذي أعده للانحاء على الحكومة
لو أنها قصرت في لقائك ، وأحجمت عن استقبالك . فهم خصوم الحكومة
ينعون عليها كل ما تفعل ويقدمون في كل ما تنوى ، فإن هي أكرمت
وفادتك قالوا ما قد علمت ... وإن هي قصرت في حفاوتها فهم قائلون
ما ستسمعه الآن .

قال المعري : أحسبهم كانوا قائلين يومئذ ان هذه الحكومة تنكرت
 للعرب وآداب العرب ، وقطعت ما بينها وبين لغة القرآن من سبب ، وباعت
 نفسها للفرنجية ، وحادت عن سواء المحجة ، وغير ذلك مما ينتظم في هذا النظام !
 قال التلميذ : أحسنت يا مولاي ... إنك اليوم لفي طليعة المرشحين
 للكتابة في الصحف السيارة ، وعلى رأس المتقدمين للخوض في غمار السياسة
 المصرية ... هكذا كتبوا ، وعلى هذا دأبوا ، ولهذا أقبلوا يعتذرون وفي هذه
 الحاجة تنقضى عليهم الأيام والسنون
 فردد المعري قوله القديم :

ما خص مصرأ وبأ وحدها بل كائن في كل أرض وبأ ...
 لكن هذا هو الطاعون الذي يحمد عنده كل وباء .

إلى المعرة يا بني فقد ختمنا المطاف ، وشبعنا من المضيفين والأضياف
 وكان « كاتب هذه الأسطر » في محضر الفيلسوف فقال : إن أسوان
 تدعوك أن تجعل الأوبة من طريق الجنوب ، وإن طالت المسالك
 واختلفت الدروب

فدارت على لسان الفيلسوف نوبة الاستشهاد بكلامه القديم ، وأجابه
 ببیت من لزومياته يذكرك فيه أسوان إذ يقول :

أسوان أنت لأن الركب نيتهم أسوان . أى عذاب دون عذاب ؟ !
 لقد زرتك فيها قبل اليوم يا بني ، فاحتسب دعوة اليوم في تلك الزيارات ،

وخلنا في عالم الفكر من هذه المجاملات والمصانعات . أما دعوتني فيها وأنت
يافع تحسب أنك تكره الحياة لأنك مملوء اليدين بالحياة ؟ أما دعوتني فيها
وأنت فتي تشور وتحسب إنني معك حين تشور ؟ أما دعوتني فيها وأنت كهل
تصالح الدنيا لأنك أنفت من مخاصمة الدنيا ؟ ! أما دعوتني فيها وأنت تزعم
أنك تناقضي بانكار الأحزان وما أنكرتها إلا ترفعا عن الشعور بالحرمان ؟
إنك دعوتني كثيراً وإنني أجبتك كثيراً ، وإنني لألقاك حيث أنت خير لقاء ،
وإنك لتلقاني وتسمعي حين تشاء

نشيد وداع

بُنَاةٌ ضَرِيحِي طَال بِالصَّخْرِ ابْطَاءُ فَهَلْ وَطَّأُوهُ أَوْ تَعْدَاهُ إِيْطَاءُ ؟
 وَهَلْ لَانَ أَوْ يَأْبَى عَلَى اللَّيْنِ نَخْوَةٌ ؟ وَهَلْ رَقَطُوهُ أَوْ سَرَتْ فِيهِ رَقْطَاءُ ؟
 عَرَفْتُ انْتِظَارَ الْمَوْتِ . أَمَّا مَنِيَّةٌ وَطُولَ انْتِظَارٍ ، فَهُوَ لِلْقَصْدِ إِخْطَاءُ
 « مَتَى يَتَقَضَى الْوَقْتُ وَاللَّهُ قَادِرٌ » فَتَغْطِيَنِ الدُّنْيَا وَيَحْمَدُ إِغْطَاءُ^(١)
 أَرَانِي لَدَيْكُمْ كَالْمَعْرَى مَعْرَضًا لِمَنْ شَاءَ وَالرَّكْبَانِ حَوْلَى خَبْطَاءُ^(٢)
 أَقْتَمُ لَذِكْرَايَ الْمَادِبَ فَاسْتَوَى بِمَادِبَةِ النِّسْيَانِ مَنَعَ وَإِعْطَاءُ
 وَمَا نَضَجْتَ تِلْكَ الثَّمَارَ فَمَا لَكُمْ دَعَوْتُمْ وَلَمْ تَخْرُجْ مِنَ الزَّرْعِ أَشْطَاءُ^(٣)

(١) أَغْطَاءُ : بِمَعْنَى غَطَاهُ

(٢) الْفَرَسُ الْخَبْطَاءُ : الَّتِي تَضْرِبُ الْأَرْضَ بِرِجْلِهَا وَهِيَ مِنْ عِلَامَاتِ الْمَرْحِ أَوْ الْقَلَقِ

(٣) أَخْرَجَ الزَّرْعَ شَطَاءً : أَيَّ ظَهَرَ فِيهِ الْوَرَقُ وَالْفُرُوعُ

AUC - LIBRARY



DATE DUE

SEP 7 1989

SEP 1989



A.U.C

14 OCT 1993

PJ

78

Q6

R3



1 0 0 0 0 1 1 4 7 4 9

